المنسية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى 2025

دار العرّاب

للدراسات والنشر والترجمة

دمشق ـ سورية ـ حلبوني الجادة الرئيسية

هاتف: 00963112247432

جوال: 00963940455593

daralaraab@gmail.com

سامر بن سليم السعدي

المنسية

رواية

الفصل الأول

كل ما في البلاد لم يعد يوحي بالأمان، وأحلامنا الصغيرة تتبعثر وتتشتت، الضياع والخوف ي حيط بنا من كل جانب، وتأكدت من ذلك حينما أخبرني والدي أنّ هذه البلاد لم تعد تتسع لنا ولا مكان لنا فيها، ولا مستقبل ينتظرنا فيها لم تعد تسعنا ولا تكفينا وأنّ بلادنا مآلها الدمار، وقتها قال لي وهو يمسكني من كتفي منحنياً بجسده الهزيل نحوي كمن يؤدي صلاته الأخيرة، انتابني شعور رهيب بالخوف، لا أدري لماذا؟ حدقت في عينيه للحظة، لكنّه قال لي حينها كلام لن أنساه ما حييت : "وفاء قد آن موعد الرحيل، فقد ضاقت بنا الأرض هنا وأرض الله واسعة وكلّ أرض في هذا العالم الكبير يحق للإنسان العيش فيها والموت فيها.

لم يدرك أبي أننا ومنذ لحظة رحيلنا عن بلادنا، سيرافقنا الذل و الهوان لم نعد نشعر في دواخلنا بأنّنا بشر يحق لنا الحياة، وقد تجلى ذلك في شعوري بمعاملة الآخرين لنا.

كأننا نهرب من أقدارنا ولكن من دون جدوى، تنقلنا من حافلة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، نخرج من منطقة لندخل إلى أخرى، حتى ركبنا ذلك المركب المتهالك الموبوء لم أستطع أن أشيح بنظري عن بلادي وأنا أبتعد عنها، أ وفي لحظة ما امتدت نحو وجهي يد كهل نحيف ابتسم وقال لي بحنو: "ما اسمك يا حلوة؟"

لذت بالصمت وأدرت رأسي لأواصل النظر باللاشئ، لكنّني همست في نفسي: "أنا اسمي الأمل، الحبّ، الوفاء، أنا الهاربة من بلادي المتعبة، أشعر ببرودة في كل أنحاء جسدي، فكأنّما غادرته روحي وأصبحت بلا حياة، أليس الوطن هو القلب والروح، هو الدفء والأمان، أليس الوطن هو الأمومة والحنان، هو الوجود، الإنساني هو الكرامة والكيان؟! تسربلت الدموع من عينيَّ وأنا ما زلت

صامتة على حالي، نظر إليّ بوجه متحسّر محتقن بالألم، نعم كلّنا نشرب من الكأس نفسها، أمسكت بطرف من ثوب أمّي أشده بقوّة، فأجلستني في حجرها على الفور، ربما لأشعر بنوع من الأمان، ولربما لتشعر هي بالأمان.

لكن خفر السواحل الذين أحاطوا بنا فجأة من كل الجوانب، ما لبثوا أن أمسكوا بمن تبقى منّا بعد ستة عشر ساعة من الابحار في القارب، وقاموا بجر قاربنا إلى اليابسة، واصطفونا وأخذوا يسجلون أسماءنا أو بالأحرى أرقامنا، وعندما حان دوري، تقدّم منّي أحدهم وقال بسخرية: "ما اسمك أنت يا جميلة؟

كنت أشعر بالخوف والارتباك، فلذت بالصمت وخفت، ومن شدّة توتري قمت بمحاولة تسوية خماري من جديد، فقال لصاحبه الذي كان بيده دفتر وقلم: سجل إنّها المهاجرة رقم أربعة عشر.

قال صاحبه في ذهول: إنّها مازالت طفلة صغيرة!

لم أدرك معنى كلامه أو حتى ماذا يقصد بهذا الكلام؟! لم أكن أعلم أنّهم كانوا يريدون أو يفكّرون بأخذنا للقيام بأعمال شاقّة وربما أخذي لوحدي، كما أنني لم أعلم أنّهم حقاً من خفر السواحل أم لا، فنظرت كالتائهة في عيني أمي، التي كانت مثلي ومثل بقية المهاجرين خائفة، ولمّا نظرت إليها مجدداً ولاحظت التساؤل في نظراتي إليها، غمزت لي بإحدى عينيها، لم أفهم ماعنته، لكنني أدركت بحدسي الطفولي، بأن ثمة خطّة كانت تحاك هناك بحق من أمسكوا بنا، وماهي إلا لحظات سريعة كالومضة، قام أحد الموقوفين بفك وثاقه على غفلة منهم، وبسرعة مرعبة انهال على أحدهم بالضرب وبجرأة وشجاعة انتزع منه بندقيته ووجهها إلى أحد المحتجزين لنا، وقام بتهديدهم إن لم يطلقوا سراحنا سيقتل الشخص الذي أمسكه ويحيط عنقه بيده والأخرى كانت ترتجف، أمسك بها البندقية ووجّهها إلى رأسه، وعندما شاهدوا أنه جاد فيما يقول، قال له زعيم المحتجزين: حسناً اهدأ سنفك وثاقهم، لكن

المهاجر البطل مالبث صرخ بنا بكل قوة: اهربوا.. اهربوا.. أنجوا بأرواحكم، في حين كانت يده التي تمسك بالسلاح ترتجف وجسده يرتعد يرتعد.

لم أدرك كيف فعلت ذلك لكنني كنت من أوائل الذين ركضوا على إثر صوته وأيديهم موثقة خلف ظهورهم، فجرينا بكل ما أوتينا من قوة من دون أن ننظر للوراء، كانت أمّي متأخّرة عنا وتتعثر في جريها، فهي تعاني من إصابة قديمة في رجلها فلم تستطع الجري بسرعة الآخرين، أمّا أبي فكان من الذين سبقونا في الجري، وفيما نحن على تلك الحال سمعنا طلقات نارية متتالية تنهال على الهاربين من بنادق المحتجزين، الذين أصابوا عدداً من المتأخرين في الجري، رأيتهم يسقطون الواحد تلو الآخر، كانت من بينهم أمّي، لقد سقطت بقوّة على الأرض، شعرت بارتطام جسدها المريض على الأرض، التفتُ إليها ملتاعة، فمدّت يدها نحوي كالمستجير بالرمضاء بالنار توقفتُ عن السير وتوقفت كل حياتي في لحظة، وقفت

وسط ذلك الذهول و الخوف ووسط ذلك الصراخ، شردت، أميّ عدتُ إليها وأنا مازلت موثقة اليدين، كيف سألمس ووجهها الجميل الندي المتعب المتغضن بتجارب السنين، كيف سأتفحصها لكنّها قالت لي وكأنها تودعني وتمنحني فرصة أخيرة للحياة كعادتها: اهربي .. ابنتي، اختلط صوتها ببكاء وعتاب وحبّ، شعرت بمشاعر شتى متضاربة، قبّلت جبينها بسرعة وعدت ملتاعة إلى مضمار السباق، أتسابق مع وجيب قلبي الممزق، لأنال الحياة وأنال الحريّة التي كنت أنعم بها في وطني، وشعرت بها تنسل مني وتتلاشى، لم أنظر خلفي فقد اتخذت قراري كي أمضي بلا عودة، أدركت أنّ الالتفات سيعرقل تقدّمي، ولربما سيكسر إصراري وعزيمتي، فلم أترك خلفي سوى الدمار.. سوى أمي التي وهبتني حياتها كي أحيا من جديد.

كنت أجري وأجري بلا هدي أو بوصلة، وفي لحظة ما لمحت جسراً، فاندفعت بجسدي الصغير، فاختفيت تحته، جلست وحيدة وبصمت كعصفور مذعور هرب من قبضة

الصياد أسمع وجيب قلبي وهو يكاد يقفز من صدري، أنصت وأترقب لما سيحدث، مرّ أولئك الأشخاص الذين كانوا يطاردوننا، رأيت أقدامهم الهمجية لكن لم يروني.

وعندما طال بي المكوث، أحسست بالجوع بعد ساعات، فتحرّكت من موضعي، تائهة، لا أعلم ما تُخبّئ لي الحياة ولا أعلم ما يُخبّئه لي القدر في هذا العالم الكبير ولا هذا البلد، وحيدة بلا أم وأب لم يكن لي أنيس سوى بعض آيات من القرآن أرددها سراً، وكأنني أخشى من أن يقبضوا عليّ من جديد متلبسة بجرم الخوف، في هذا البلد الغريب الذي تطأ قدماي تربته لأول مرة في حياتي.

خرجت أسير كالمتسولة من فرط جوعي وتعبي، اقتربت منّي امرأة أنيقة، تأملتني بعناية واهتمام وهي صامتة، مالبثت أن تصدّقت عليّ وسألتني: "ما اسمك؟"

قلت: "وفاء"

-"أين والديك؟"

صمت وأنا أطرق بنظري خجلاً نحو الأرض، لكنّها اصطحبتني معها وأخذت تُمنّيني بحياة جديدة وتطمئنني، كانت لطيفة جداً وودودة معي ففرح قلبي واطمأنت إليها نفسي.

أدخلتني بيتها الفاره وأنا المتعثرة بل المعدمة في حالة من الذهول، وفي أعماق ذاتي احتفظت بحقيقتي لنفسي، فقد أصبحت باسم جديد وعائلة جديدة وجنسية جديدة ومأوى جديد، وفي خاطري همس قلق: يا ترى ما هو الثمن؟! لم أنسى ماقاله لي أبي يوماً، فلقد أخبرني أنه لا يوجد شيء مجانيّ في البلاد التي عزمنا على المهاجرة إليها، لكنني وفي مثل حالتي لم أستطع الرفض أمام عرضها المتميّز، نعم لا يمكنني الرفض

ومن فورها حممتني وألبستني أجمل الثياب ثمّ أخذتني للطبيب، كانت تتحدّث إليه بلغة أجنبيّة لم أفهمها لكنه حين كان حين يبتسم وينظر نوحي ثمّ يومئ برأسه موافقا، أدركت أنّ هناك أمراً مريبا سيحصل، التزمت صمتي ثمّ

أمسكت بيدي وتحدّثت بالعربيّة معي كما فعلت في كلّ مرة تتحدّث فيها معي، قالت لي: "تعالي لأريك ولدي الذي يرقد هنا"

نظرت معها عبر الزجاج كان عناك ثمة طفل في عمر الورود، في مثل عمري تقريباً، كان شاحب الوجه، يتنفس من خلال أجهزة كثيرة متصلة بجسده الواهن تمده بحياة شعرت أنها تحتضر للمغيب .

لكن بقيت في حيرة من أمري، أشدّ على تلك السلسلة المتدلية حول عنقي، ورحت أتأمل أثاث غرفتي الباذخ في ذلك البيت الفاره انتابني فضول الصغار في لحظة ما قررت التسلل بعد العشاء خارج الغرفة التي أعدّتها لي، فسمعتها تتحدّث بصوت خفيض مع زوجها وقفت خلف باب غرفتهم، لا أدري ماذا حلّ بي في تلك اللحظة ولماذا تجاوزت حدودي؟ لأنّ أمّي أخبرتني أنّ التنصّت حرام، لا أدري لماذا فعلت ذلك لكنّني نجوت حين استمعت

لحديثهما، فقد كان حدسي مصيباً من أن هناك شيئاً ما يُدبر لي.

قال لها: كيف سمحت لك لنفسك ولإنسانيتك بفعل هذا مع ابنة صغيرة؟ ألا ترين إنّها عربيّة مثلنا؟

- هل ارتكبت جريمة حينما فكّرت بمصلحة ابني؟!

- نعم جريمة انسانية عندما تكون على حساب طفلة مشرّدة تأملت بك الخير ووجدت معك الأمان.

- لا تقلق أنا من سيتحمل الذنب، سنأخذ كلية واحدة وندع لها الأخرى، كي تعيش بها.

- وهل هي تعلم بذلك؟ بكل تأكيد لا تدري ماذا يجري؟

- ستعيش في أمان بيننا كأحد أفراد الأسرة.

- هنا معنا؟

- أجل هنا وأين المشكلة في ذلك؟

كان هذا الحديث مرعباً ومفاجئاً وكفيلا بأن يجعلني أفكّر بسرعة وأقرر الهرب من هذا البيت الذي ظننت

صاحبة هبة رحمانية جادت بها السماء رحمة بتشردي، نعم كان أبي محقّا كلّ شيء في هذه البلد لا يوجد شيء بالمجان كله بثمن، كنت أشعر بالخوف ينشب أظفاره ورحت أتخيل كيف سيتم تخديري بكأس عصير أو أي شيء آخر، لم أنم تلك الليلة، تقلبت في فراشي الوثير وكأنه منسوج من الأشواك، توخز ضميري وجسدي وكل كياني الصغير، ولا أدري كيف أغمضت عينيّ، فرأيت شبح أمّي تمسح على وجهي بحنانها الذي أعرفه وهي تقول:

ـ لا تخافي إنّ الله معنا لا تخافي.

الفصل الثاني

استيقظت وكلّي عزيمة وقوّة وإصرار، إنّ الله معي، كنت أرددها في نفسي وصدري يعلو ويهبط، أدركت حينها بأنني يجب أن أنفذ قراري بالهرب من هذا الجحيم الذي ينتظرني، وكان الظلام حينها يشقّ طريقه وقد بدأت ملامحه تنطفي، فرحت متسللة كالقطة التي تهرب من كلب موحش ينتظرها، فتحت الباب بتؤدة والخوف يزنرني، فخرجت أجري أسابق الريح في الشارع، كنت أريد أن أبتعد قدر ما أستطيع عن هذا المكان الذي أصبح كل مخاوفي تنبعث منه، وبعد لحظات تجاوز المكان الذي تعيش فيه صاحبة البيت، فأدركت حافلة كانت تهم بالانطلاق، فركبت فيها لا أدري أين تذهب لكنّني حاولت من خلالها الابتعاد قدر ما أستطيع.

وجدت نفسي فجأة في الشارع الذي اقتادتني منه تلك المرأة كيف لا أدري، نعم رجعت للشارع ثانية بعد أن عشت أحلام راودتني، تساءلت في نفسي عن أبي يا ترى أين يمكن أن يكون ؟ أبي الذي كم أشعر بالحاجة إليه، فهو يحمل عني كل أعباء العالم لكنه أين؟

راح الجوع يعتصر معدتي التي تأكل بعضها، جلست خارج مطعم أتفحّص وجوه الزبائن الذين يجلسون فيه وأصوات المعالق في الصحون الملأ بالأطعمة ينخر مسامعي ويسقط كحجر في أعماقي السحيقة، ألاحظهم وهم يقرّبون الأكل إلى أفواههم، أحسست بجوع كبير لا حدود له، وعندما اقتربت من باب المطعم، أدرك النادل حاجتي، فأبعدني بعنف وأمسك بمرفقي ودفعني بعيداً، فتهاوى جسدي الصغير مثل كرة قماش، لأسقطت على الأرض، سويت خماري الذي انحسر عن رأسي إلى الأمام، شتمني النادل بلغة أجنبيّة، لم أفهمها إلّا أنّ تعابير وجهه جعلتني أفهم كل شيء بل فهمت كم هو العالم ظالم

وقاس على أمثالي، وأنا على تلك الحال تقدّمت منّي فتاة أنيقة تحدّثت معي بنفس لغته التي لا أفهمها، كانت تسألني وتشير بيديها، ثمّ ناولتني طعاما كانت تحمله في يدها، أمسكته بلهفة وتناولته عيني بشراهة قبل نفيسي، كانت تتمعّنني وأنا ألتهم طعامي الذي جادت به عليَّ، وحين فرغت منه، كانت تتحدّث وتحاول أن تشرح لي ما تقول بحركاتها، كي توصل المعنى الذي تريده، فهمت أنّها تحاول مساعدتي وتطلب منّي مرافقتها.

فتساءلت في نفسي ماذا يمكن أن يحدث لي أسوأ ممّا حدث ؟ سأرافقها متوكلة على ربي، وأكون على حذر ما استطعت.

فرحت أردد طوال الطريق في نفسي عبارة: بأنّ الله معي ولست وحيدة، فمن سيكون عليَّ ؟

وأنا أسير خلفها مثل كلب ذليل، وماهي إلا لحظات حتى وصل بناء بان من هيئته الخارجية بأن سكانه من الأثرياء، وعند مدخله حيث الباب، خرجت علينا امرأة

ترتدي خماراً على خلاف أهل هذه المدينة، فقلّما رأيت امرأة محجّبة، نظرت إليّ وابتسمت ورحبت بنا بلغتهم.

وهناك في بهو البيت الكبير جلست بجوار المرأتين وهما تتحدثان، بينما أنا جالسة في مكاني في حين كانت تلك المرأة تنظر إليّ ملتفة من حين لآخر، ثمّ قالت لي: "ما هو اسمك ياحلوة؟

أجبتها من دون تحفظ :

_اسمي وفاء.

_ما أجمل اسمك ياصغيرتي.

_كم عمرك؟

_ثماني سنوات.

_ما شاء الله تبارك الرحمن.

_أين والداك ؟

رحت أسرد حكايتي عليها وهي تومئ برأسها، مع كل جملة وتستمع بتمعّن من دون أن تقاطعني للحظة، وحين أنهيت كلامي قالت:

ـاسمعي يا بنيّتي بما أنّك وحيدة الآن، وفي بلد غير بلدك يجب أن تتعلّمي لغتهم، هم يتحدّثون باللغة الإنجليزية وأنا مستعدة لتعليمك، ومن ثمّ تواصلين وحدك "، ثمّ تحدّثت لتلك الفتاة التي أحضرتني بلغتها، لم أكن أفهم شيئاً بعد، ثمّ أحضرت لها النقود والتفتت نحوي وقالت بلغتي:

ـستمكثين عند هذه الفتاة فترة كي تعلمك اللغة الإنجليزية، ولقد دفعت لها أجر مكوثك عندها وستحضرك كلّ يوم عندي لأعلّمك، وحين هممنا بالخروج من البيت سمعتها تقول: ـاللهم اجعلها صدقة جارية على روح أبي.

تذكّرت ما كانت تقوله لنا أمّي عن ثواب الصدقة وبأنها أكثر مايفيد الميت في قبره، فأردت كذلك أن عليَّ أن

أتصدّق عن روح أمي، فبدأت بترديد سبحان الله والحمد لله والله أكبر وتغنّيت بها لكنّ تلك الفتاة أسكتتني، حيث كان كل من صادفناهم من المارّة ينظرون إليّ باستغراب واندهاش وخوف كأنّني إرهابية سأفجّر رؤسهم ؟

الطفلة التي جاءت من بلادها المنكوبة كمحاربة في هذه الحياة التي ستصمد فيها رغماً عنها بعد يوم متعب ورحلة موجعة، أنا المحاربة التي لها يقين كبير أنّ الله معها، ولن يتخلى عنها.

كنت في كلّ يوم أذهب عند تلك المرأة برفقة هلينا التي كانت ترعاني وكانت توصيها تلك السيدة بي، ومع مرور الأيام وتعاقبها تعلمّت جلّ الحروف الإنكليزية، وبدأت في تركيب الكلمات كي أصنع منها جملاً تعبيرية، حينها قررت السيدة مريم أن تأخذني معها للمسجد لأشعر بالهدوء والأمان والطمأنينة، مالبثت أن تعرفت على نساء طيّبات جدّا وحسدت بناتهن عليهنّ، اللاتي كن برعاية أهاليهن وليس يتيمات مثلي.

وبعد مضيّ أكثر من ستة أشهر من تعلّمي بدأت أفهم معنى الشتائم التي كانت توجّه إليّ من قبل الغير، نعم أنا لا أنكر ذاتي فأنا فتاة سوداء ولوني مثل الفحم، بيضاء القلب ونقية السريرة، لكنّني لم أسرق حريّة أحد أبداً، لن ولم أكن إرهابيّة ولا قاتلة ولا حاقدة، بل أمقت هذا النوع الذي يستفز داخلي على الدوام.

وما حصل أنه في الأيام التالية، توقفت السيّدة مريم فجأة عن توفير المال لهلينا، فانعكس الأمر على سلوكها وعليَّ، فأصبحت معاملتها فظة قاسية معي، وطالبتني بالسعي والبحث عن عمل أعتاش منه، أخبرتني حينها أنّه لا يهمّها أبداً نوع العمل الذي أحصل عليه المهم هو حصولي على المال، نعم المال الذي كان كل شئ في حياتهم، بتُ مهمومة أتذكر تفاصيل وجه والدي وهو يعود متعباً في آخر النهار ويدّعي السعادة كي لايؤذي مشاعرنا، لأن همه الوحيد أن يوفر لنا لقمة العيش رغم الظروف السيئة، لكن في الحقيقة كانت روحه تُزهق من شدة التعب

الذي كان يلاقيه، حتى وجه أمي التي كانت تتحامل على نفسها كي تبدو قوية أمامه توهمه بأنها على مايرام، وهي تستقبله وتعد الطعام رغم أمراضها المتعددة، كانا يتحاملان على نفسيهما ولايصارحان بعضهما بمعاناتهما، فقط كي لا أشعر أو أرى ملامح القهر والحرمان في وجهيهما.

في الصبح خرجت وأنا أردّد في نفسي عبارة يارب كن معي، جلت في شوارع المدينة وحاراتها حتى اعتصرني الجوع والتعب كلّها وعندما حلّ الغروب، رجعت أجرجر قدمي فذهبت لبيت السيّدة مريم لعلّها تشفق عليَّ وترحم حالي وترحم ما حلّ بي في آخر أسبوع لم تدفع فيه المال من أجلي.

لكنّني بحثت عنها ولم أجدها، فقد فتحت لي الباب فتاة عشرينية جميلة تشبهها لحد كبير، فارعة الرأس وتتكلّم بلغة إنكليزية هادئة مشوبة بالحزن، سألتها :

ـمن فضلك أريد السيدة مريم؟

مسحت أنفها بمنديل كانت تحملها بيدها، فقد احمرّت عيناها والتهبت، ومن دون أن ترد، تدحرجت دموعها على وجنتيها الورديتين فقالت بحزن دفين:

_ليتني أستطيع أن أناديها، رحمها الله فقد رحلت.

_توفيت؟

كانت صدمة أخرى نظرت إليها باستغراب وأنا غير مصدقة :

_ظننت أنّني سأجدها، لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، عظم الله أجركم

فأردفت قائلة:

_ تفضّلي بالدخول، لوكانت أمّي موجودة لن تدعك تقفين أمام الباب أكثر من لحظة.

_بكل تأكيد، لو كانت موجودة ستفكّر معي في حلّ ينقذني، كيف سأفعل الآن ؟

دخلت إلى بيتها وقلبي ينبض حزنا، ليتني استطعت توديعها، ليتني أوصيتها أن تنقل سلامي لأمّي، رحمكما الله.

أحضرت ابنتها بعض الحلوى مع عصير البرتقال، فقد كنت جائعة جدّا وأدركت تلك الفتاة أنّني بحاجة لأكل المزيد حين التهمت كلّ الحلوى التي أحضرتها، ابتسمت ومدّت يدها نحوي ووضعتها على فخذي وربتت قائلة:

_هلّا بقيت للعشاء معنا؟

حينها لم أتردد وقلت لها:

_سيّدتي، في الحقيقة ليس لي مكان أذهب إليه.

تأسّفت تلك الفتاة لحالتي البائسة وأخبرتني أنّ والدتها كانت في المراحل الأخيرة تعاني ألاماً شديدة، من مرض سرطان الكبد، كانت آلامها حادّة تنخر جسدها، وكانت تصرخ كلّ مساء من قوة الألم، قبل أن يتقوّى عليها المرض ويهلكها، طلّقها زوجها وهي وافقت ولم تعترض

وتركت كلّ شيء وانتقلت لهذا البيت الذي ورثته عن جدّتها التي احتضنتها فيه وربّتها فيه وكتبته على اسمها، لكنّها في آخر أيّامها تبرّعت بهذا البيت ليكون ملجأ للأيتام وذكرت فتاة بمثل مواصفاتك، واسمها وفاء.

قاطعتها:

_أنا وفاء.

_نعم لقد أدركت ذلك بعد حديثي معك، لقد أوصتني بك خيراً، ومن الآن فصاعداً هذا سيكون بيتك.

نظرت من حولي غير مصدقة كيف يحزنني القدر ويأتي الفرج من رحم الألم، فتذكّرت أمّي حينما كانت تقول لي أطلبي ما تشائين من الله لا تتمنّي أحد، سيعطيك الله أكثر ممّا تطلبين، سيرعاك الله كنت أسألها:

_إنّ طلباتي يا أمّي غير منطقيّة.

فكانت تردّ عليّ مبتسمة وترفع عينيها الدامعتين نحو السماء:

ـ إذ أراد الله شيئاً أن يقول له كن فيكون.

سبحان من رزق يونس في بطن الحوت ورزق زكرياء الولد وهو عجوز عقيم، ورزق مريم فواكه في غير وقت نضوجها، سبحان من يرزق الخلق ولا يعجزه شيء.

يا الله إنّ كلمات أمّي ترن وتتردد في مسامعي، لكن ثمة صوت لطيف يهمس في أذني ليذكّرني بلطف الله، إنّه صوت الفرح والسرور، لم أستطع إخفاء فرحي وهممت بالسجود، لم يكن أمامي سوى أن أسجد لله شكراً فهو الذي رزقني بهذا المأوى وأنا بأشدّ الحاجة إليه.

بدأت حياتي في ذلك البيت أو بالأحرى الملجأ وأنا أقارب على إتمام تسع سنوات، كنت أغسل الأواني وأعجن الخبز، لم يكن الجميع في الملجأ من المسلمين، فالمسؤولة كانت مسيحيّة، أمّا نائبتها فكانت مسلمة، وثلاث خادمات أخريات اختلفت دياناتهن، أمّا البستانيّ فقد كان رجلاً مسلماً أيضاً وكان مهاجراً قصّته تشبه قصتي، أمّا الأطفال الذين ضمّهم الملجأ فقد كانوا أكثر من

عشرين طفلاً وطفلة، من بينهم ثلاثة أطفال رضّع، أمّا ابنة السيدة مريم فأوصت المسؤولة بي وودعتني وغادرت لتواصل حياتها بعيداً عن هذا المنزل، تمنّيت لو أخذتني معها فقد كنت استأنس بها كثيراً، كانت المسؤولة عن الملجأ ذات ملامح قاسية ووجهه مثل ليمونة صفراء، حازمة وصارمة مع كلّ شخص في الملجأ وكان الجميع يخاف منها.

وخلال تواجدي في الملجأ كنت أتسامر الحديث مع البستانيّ في أغلب الأوقات فهو الوحيد الذي كان يفهمني، ربما لأنّ قصّتينا تشابهتا أو لأنّنا نعتنق نفس الدين، كان شابّاً أتمّ عقده السابع والعشرون وكان يرى فيّ أخته الصغيرة، لذلك كان يحنو عليَّ كثيراً، طلبت منه أن يحضر لي كراساً وقلماً لأدون بعض ذكرياتي فيه.

لا أعلم أي اتجاه أسلك لكني رغم تشعبها حافظت على التزامي بصلاتي، فقد علمني أبي بأن الصلاة تنظم الوقت، وتخلق في نفس المؤمن الاستقرار النفسي والروحي لذلك

لايشعر الشخص بالراحة مالم يؤدي فروضه الدينية اتجاه ربه.

ليتك أخبرتني يا أمّي أنّ العالم بهذا السوء، لم أعلم أنّ به هذا الكم الهائل من الشرّ، أمّي كنت العالم في نظري وجعلت الأنوار تحيط بي فلم تغادرني الفرحة وأنا معك والبسمة تزيّن ثغرك، لقد اكتشفت أنّ للوجه تعابير أخرى سيّئة ومخيفة ومتعددة لم أرها في وجهك

لقد هربنا من أرض الفقر والمساكين إلى أرض الإنسانية كنا نأمل بعالم آخر أكثر إنسانية، لكنّني وجدت غير ذلك وجدت الأمر مختلفاً تماماً، فصفة الإنسانية وإن كانت صفة لازمة للإنسان إلا إنني اكتشفت أنها لا تشمل جميع البشر واكتشفت أنّ البشر ليسوا جميعا بهذه الصفة، رأيت أنّ الكلب جيمي أوفى وأحنّ من كثير من البشرلأنّه يعاملني بما أقدّمه له على خلاف بعض الأشخاص الذين يقيمون معي في هذا الملجأ، ليس العالم جميلاً كما اعتقدت ولا مريحا كما أخبرتني يا أمّي!

أغلقت كرّاستي وها أنا ذا أعود للمطبخ مرة أخرى.

لقد طلبوا منّا ارتداء أقمشة على وجوهنا، لا أعرف لماذا؟ ولا أدري ما هو أو كيف اسمه؟ إلّا أنّ المسؤولة على الملجأ ذات الوجه الليموني الشاحب، علّمتنا طريقة وضعه على وجوهنا وطلبت منّا الابتعاد عن بعضنا البعض، كما علمتنا طريقة جديدة لغسل أيدينا والمحافظة على نظافتنا، أمور لأول مرة أعلمها ربما كانت إيجابية أو سلبية، لا أدري؟

كان هناك ثمة رجا كهل في زيارتها، تبادله ابتسامتها العريضة، وحين ودّعها ابتسمت له بفرح أكثر، لم أكن أفهم مالذي يعنيه ذلك الكهل وهو يرمقني بنظرات الإعجاب؟ ابتسم لي ولوّح بيده مرحّبا بي، أهي مصيبة أخرى ؟ نظرت إليّ المسؤولة بعمق نظرات اخترقت دواخلي الطفولية، وفور خروجه من باب الملجأ الرئيسيّ استدعتني السيّدة روجينا وراحت تحدثني بحرص في انتقاء كلماتها:

ـوفاء تعلمين أنّنا نختار لك الأفضل ونبحث عن مصلحتك، كما أفعل لمصلحة جميع من في الملجأ فأنا كالأم لهؤلاء.

كنت أراقب الكلمات التي تنزلق من شفتيها الرقيقتين وهي تتلو على مسامعي عبارات الحرص والأمومة. صمت وأنا أنظر إليها بتمعّن أهمس في أعماق نفسي :

ـما أخبثك ياروجينا، كم أنت شريرة، تريدين الأفضل لنفسك فقطّ

واصلت حديثها وهي تحمل كوب الشاي وتقرّبه من فيها تحاول أن يبدو الموقف عادياً، من دون أن تظهر لي عدم اكتراثها وبأنّها لا تهتم وفعلت الصواب:

ـ عزيزتي وفاء، لقد أتى شخص محترم وغنيّ ليتبنّاك، وغداً سيعود لأخذك معه، ستحظين بحياة رغيدة، وهي فرصة تتمناها أي فتاة من فتيات الملجأ وفي مثل سنك.

لم يخطر في بالها أن صغيرة وفقيرة مثلي أن تملك الجرأة في انتقاء السؤال المحرج الذي يتطلب منها إجابة صريحة.

ـ سمعتك سيدتي، لكن ماهو الثمن ؟

شعرت بصعقة قوية ومفاجئة، لكنها حرصت على التماسك، فوضعت الكوب جانباً بعدما ارتجفت يدها واتسعت حدقتي عينيها، كأنني كشفت ما أخفته فردت:

ـثمن ماذا؟

ـثمني.

"كيف تجرؤين يا وقحة على التحدث معب بهذه الطريقة؟

ـ سيدتي في بلدكم هذه كلّ شيء يكون بثمن، لاشئ بالمجان، لقد قبضت ثمني من دون أن تسأليني رأيي، أو حتى تستشيريني إن كنت أقبل بالرحيل عن هذا المكان، الذي هو في الحقيقة ليس ملكك ولن يكون، أتعلمين

لماذا؟ لأنّك لابد وأنك فانية في وقت ما، وسيدركك الموت وتفترشين التراب وحينها لن أسامحك أبداً، لن أغفر لك ظلمك لي وجرمك، أمّا أنا فان لله معي وسيحميني.

لم تطق سماع كلماتي ولم تحتمل حقيقتها، فصفعتني بقوة، فسقطت أرضاً كالمغشي عليها، سمعتها وأنا شبه غائبة عن الوعي، قد نادت على الخادمات، اللاتي حملنني إلى القبو حيث تم احتجازي عقاباً لي، الوحيد الذي كان يهتم لأمري هو صالح البستانيّ الذي جاءني متسللاً وقد أحضر لي بعض الطعام:

_لقد علمت بما حدث ياوفاء.

_لماذا جئت ؟ أتريد أن تعاقب مثلي أنت تعرض نفسك للخطر.

_ جئت رغم مايترتب على ذلك من مخاطر، أريد أن أهرّبك من هذا المكان الموبوء.

- لا،لا أريد أن تعرض نفسك للعقاب من أجلي، أرجوك لا تفعل ذلك.

تعجّب صالح من ردّة فعلي واصلت:

_لن أهرب لأنّها فرصة جديدة لأبحث عن أبي وأخرج من هذا المكان لقد دعوت الله ألا يخذلني، وسيكون معي.

_وفاء اسمعيني جيداً، أنا خائف عليك، أنت لاتعرفينهم أنا أعرفهم أكثر منك.

_ لاتخف عليَّ أم معي ربي، لن يكلني إلى نفسي طرفة عين.

_أنت قوية يا وفاء، من أين لك بهذا اليقين العجيب؟

ابتسمت وطأطأت رأسي كيف أجيب تساؤله، لا أدري، هل لي حلّ آخر غير التشبث بالله، هل لي حل غير الإيمان به واليقين بحكمه، سأعذّب نفسي فقط إن اخترت حلّاً آخر.

بعد ذلك أيقن صالح بأنني متشبثة برأيي وأدرك عمق يقيني بربي، فغادرني متسللاً مثلما جاء.

في الصباح الباكر رأيت الخادمات حين فتحت عينيّ يبتسمن في وجهي، وقمن بأخذي إلى الحمام، وقمن بتعطير جسدي، وألبسنني ثياباً نظيفة وجميلة ومشطت إحداهنّ شعريّ المتجعّد الخشن، وضفرت جديلات صغيرة ثمّ وضعت خماري، متمسّكة بحجابي، لا أريد أن أنسى ما تربيت عليه، فأنا أستأنس بخماري وديني فبهما أتذكّر والديّ وأشعر أنّهما معي وأنّني لست وحيدة في هذا العالم الموحش.

كأنني في طقوس مبهمة كألعاب الأطفال وكلعبة العروس والدمى، فجاء ذلك الكهل الذي رأيته أمس وهو يحييني بابتسامته المبهمة، وقد بدا متأنّقاً ومتعال متعجرف بآن معاً، لكنّه كان معي ودوداً مبتسماً، وقفت صامتة جامدة دون حركة صامتة، مثل تمثال شمع مزين في ليلة الميلاد.

في سيارته الفارهة حيث توجه بي إلى منزله، كنت مجرد جثة متحركة، يُدرك وحشتي ومخاوفي، أنا سندريلا هذا العصر الذي يسعى إليه هذا الكهل، تعبث بنا أمانينا وتنسينا قساوة الدنيا، فراح يتلو على مسامعي كلماته اللطيفة:

_ الجمال يا ابنتي يولد فينا وبداخلنا لكنّنا نلوّثه مع مرور بالنسيان، وتلوّثه خيباتنا المتكرّرة في الحياة، حين يتعاظم الفشل داخلنا وينزل علينا وابل من الشتائم، تلقيه علينا ضمائرنا، لست عجوزاً يا ابنتي كما أبدو لك، أنا طفل، مازلت أحبّ الحياة وأعشقها وما زلت أتعلّم، ما زلت أحبّ اللعب والتأرجح، وأحب لعبة الغميضة، ليس حراماً عليّ أن أحلم، لكنّ العالم يجبرني أن أكون كهلاً من أعماقي، فالعرف يمنعني من الاستمتاع بالحياة وفق طريقتي الخاصة التي قد تبدو لغيري غريبة .

نظرت إليه بتمعّن:

_ماذا تريد منّي؟

ـأريد لقلبك السعادة والحياة الرغيدة.

نظرت حولي أتفحص المكان المثير:

ـهل يمكن أن لهذا الكهل أن يكون صادقاً؟ إنّه أضعف احتمال. هذا القصر الفخم وهذه الحديقة الجميلة، كلّ هذا يجعله حزيناً ولايفرح أو بالأحرى لا يضيف شيئا في حياته؟

تلقيت منه أول هديّة في اليوم الموالي كانت دمية ترتدي فستان عرس، دمية أنيقة كصاحبها

أهداها لي كنت فرحة بها، لم يهدني أحد مثلها من قبل، جلس إلى جانبي وقال لي بنبرة واثقة:

ـأريد الزواج منك؟

ارتجفت أوصالي هلعاً فابتعدت عنه بحركة خاطفة وشخص بصري، فزعت من طلبه، أنا أصلاً لا أعرف معنى الزواج؟ ولا كمّ المسؤوليات التي تفتحها عليّ هذه الكلمة؟ وهل سنّي مناسب للزواج؟

ـكيف لي أن أتزوّج عجوزاً يكبرني بأربعين سنة؟

ـوأين العيب في ذلك ياصغيرتي، إن كنت سأكتب هذا القصر باسمك والسيّارة وكلّ ما تطلبين من أملاكي.

ـ الملك لله وحده، أنا لا يغريني المال، لقد تربيت فقيرة، أستلذّ الخبز اليابس لكن والداي علّماني ألا أطمع فيما ليس لي فالطمع يورث الفقر والذلّ.

شعر بأن كلماتي تفوق عمري وبأنني أمتلك القدرة على التحاور، وقف عاجزاً بعد كلامي، رأيت العجز في عينيه، لكنه قال لي بكلام الواثقين:

ـوتقولين أنّك طفلة بعد هذا الكلام ؟ لقد زاد إعجابي بك وزاد تمسّكي بك وسأترك لك وقتاً للتفكير، لا تتعجّلي بالرد عليَّ.

جلست وحيدة ثانية أحاول تحكيم عقلي الصغير، ألملم بقاياي المبعثرة، أركن إلى أعماقي وأحاول الاستماع إلى

صوت ضميري البعيد، ماهو الحلّ البديل يا تُرى إن لم أقبل بعرضه؟

رغم مناداته لي بابنتي إلّا أنّه لم يتردّد في طلبه، دفعت باب مكتبه قلت بلهجة غاضبة: _ لقد ناديتني بابنتي منذ الوهلة الأولى، لا أستطيع الربط بين طلبك وطريقة حديثك، ولماذا أنا بالذات، لماذا اخترتني من بينهن، أنا فتاة سوداء، شعرها خشن، بشعة، لا تناسبك، لا تناسب سنّك أو مركزك الاجتماعي، لماذا؟ قل لي بالله عليك لماذا؟

ابتسم ببرودة ورفع رأسه نحوي ببطيء ثمّ ضغط زرّاً أصفراً كان مثبّتا على مكتبه وإذ بخادمة تأتي مسرعة، أمسكتني من مرفقي وقالت بلغتها الإنكليزية:

_لقد ارتكبت خطئاً فادحاً، فسيّدي يبغض من يقطع عليه عمله أو يقتحم مكتبه.

جرّتني من مرفقي كخروف صغير خائف تائه، وقفت وسط الرواق، التفتت إليّ، سارت دموع دافئة على وجنتي، حينها ضمّتني إليها وطبطبت عليّ، يبدو أنّها رحيمة وليست مثل السيدة روجينا والخادمات، تشبثت بحضنها فأنا لم أذقّ طعم هذا الحضن منذ أكثر من عام.

انتفضت وإذ بالسيّد خلفها مباشرة، أبعدتني عن حضنها برفق فنظرت خلفي وإذ به هو يقف خلفنا مباشرة، أشار لها برأسه يأمرها بالانصراف.

ـ ما يبكيك صغيرتي الحلوة؟

لا أستطيع الردّ عليه، كيف سأشرح له هذا الشوق وهذا الفراغ الذي يحتل مساحات عقلي وقلبي.

قال مستدركاً:

ـانتشر وباء خطير يفتك بكلّ من نشب في جسده كالنار تأكل الحطب.

ثمّ وضع يده في جيبه :

ـخذي هذه الكمامة الوقائية ستقوم مريانا بإعطائك كلّ يوم واحدة جديدة عوضاً عن المستعملة، إضافة إلى أنّه يجب عليك عدم الاقتراب من الأشخاص أقلّ من نصف متر"

ـهل أنت مسلم؟

ـلا، أسمع عن المسلمين لكن لم أدخل في دينهم.

ـماذا تسمع عنهم قلي بصراحة؟

ـبصراحة ومن دون أن تغضبي مني؟

ـنعم، قلها ولاتبالي.

ـ يُقال أنّهم همجيّون يحبون الدماء، يسفكون الأرواح، ومتخلّفون، لكن استثني بعض المسلمين القلّة طبعاً، ولاستثناء وارد في كل شيء.

طأطأت رأسي، لا أدري ماذا أجيب لكنها ليست الحقيقة ؟

ونحن على هذه الحال إذ بي أسمع ريحاً قويّة، نظرت حولي واعتقدت في ثانية أنّ القصر سينهدم علينا من قوّة تلك الريح التي تتالت ولم تتوقف، انكمشت في مكاني وأنا مذعورة.

تقدّم نحوي قليلاً وقال:

ـلا تخافي، هذا بلد العواصف وهذه عاصفة خفيفة.

بعد أسبوع من مكوثي، بدأت أفكّر في كلّ ما منّاني به وهل فعلاً يريدني زوجة له رغم فارق السنّ الكبيرالذي بيننا؟!

حينها تذكّرت والدي :

ـيا ترى هل هو على قيد الحياة؟

أنا مجرّد رقم في مطبّ النسيان، هل فعلاً ما زلت أنا هي أنا أم تغيّرت بعض ملامح قلبي؟ يبوح القلم بما لم تستطع يوماً أن تبوح به الكلمات، لا أعرف معنى الحب، أنت تطلب مني المستحيل، تطلب وجعاً بعده وجع

وأنين، تطلب منّي أن أخذلك، أن أوهمك، ما معنى الحب، ما معنى الزواج؟ هل يمكن أن أناديك ب"عمّ" أم ماذا أناديك، هل يمكن أن تتبنّاني بدل أن تتزوجني؟

الفصل الثالث

كنت أتألم وأشكو وجعي لأمي:

_آاااه أين أنت يا أمي، لتداوي حسرتي، وتنقذينني من وحوش إمبراطورية الإنسانية؟ قلبي يؤلمني، وخز عميق ينخره حتى أعماق ذاتي.

ينتظر ردّي كلّ يوم وينتظر أن أخدعه بكلمة "موافقة"، لا أدري هل أوافق؟

جلست في حديقته الجميلة التي حوت كلّ أنواع الورود، قابلت نافورة الماء، أستمع لصوت الخرير وأرقص مع نغمات النسيم اللطيف، وإذ به يجلس إلى جانبي في نفس الكرسيّ، أمسك يدي وقبّلها همس لي بحنان:

_هل حلوتي بخير؟

ابتسمت وقبلت يده بدوري، قال مبتسماً:

ـ لقد مرّ عام كلمح البصر أليس كذلك؟

نظر إلي ينتظر جواباً، أومأت برأسي موافقة، واصل حديثه وهو لا يزال يمسك يدي:

ـلقد وافقت على شروطك كلّها ولم أقترب منك، والآن أنت تبلغين عشر سنوات، ازددت جمالاً وأنوثة، وأنت زوجتي، تنامين في غرفة خاصة بك وأنام أنا في غرفة أخرى، أما آن الآوان أن تجمعنا غرفة واحدة وسرير واحد؟

وقفت فزعة وشخص بصري نحوه، أعدلت خماري كعادتي توترت، صرت أشبّك أصابعي وأترنّح في وقوفي، أفكّر في إجابة تصرفه عنّي، قلت له:

ـألم تكفك تلك العشيقات؟ وقف غاضبا:

ـ من أخبرك؟ إن قلت له أخبرتني فكتوريا فسيطردها مباشرة، استدرت وأوهمته بأني غاضبة:

ـ لقد رأيتهنّ، ولم يرقني الأمر.

ـأتغيرين عليّ يا حلوتي؟

تقدّم نحوي من الخلف وخطف قبلة على وجنتي وابتسم ابتسامة عريضة، وودّعني

بيني وبينه أربعين سنة، عمره خمسون سنة وأنا عشر سنوات، لا أعلم لماذا اختارني أنا بالذات؟ أخبرتني فكتوريا بأنّه أحبّ فتاة تشبهني في صغره ووالداه حرماها منه، لفارق الطبقة الاجتماعية التي بينهما، فمعشوقته كانت ابنة خادمتهم، وهو ابن السيد، والآن جاء دوري ليُكفّر عن خطيئة والده وحبه التائه والضائع بي، حتى اللحظة لا أعلم ما معنى حبّ أو زواج، أنا أشفق عليه كثيراً، لأنّه يبحث عن حب ضائع، ذهب مع صاحبته، لكن خطرت ببالي فكرة.

ذهبت جارية نحو فكتوريا:

ـ فكتوريا.. ماذا تعرفين أيضا عن معشوقة سيّدك، أين يمكن أن نجدها؟

نظرت فيّ بتمعن وتساؤل وقالت:

ـهل تريدين أن تبحثي عنها؟

قلت بثقة:

ـ ولما لا؟

وضعت يديها على المكنسة بعدما اعتدلت في وقفتها وقالت: "السيد ريمون يعرف السيد بطرس أكثر من أيّ شخص، هو الوحيد الذي يمكن أن يفيدك"

ـوكيف يمكن أن أتحدث إلى السيد ريمون دون أن يسمعني بطرس؟

ـسيدتي إنّه يحضر كلّ يوم خميس يلعب الشطرنج مع سيدي، حوالي أن تسأليه دون أن ينتبه سيّدي. كنت أترقب يوم الخميس بلهفة عميقة لا أدرك كنهها في داخلي أشياء ورغبات مبهمة تبدو غير مخيفة رغم غموضها.

أتى يوم الخميس، إنّي أتحيّن الفرصة المناسبة كي أفاتحه في الموضوع، ها قد خرج بطرس ليجر اتصالاً، قلت له مباشرة:

ـ سيّد ريمون لن أخبر أحداً، أين يمكن أن أجد معشوقة بطرس، أرجوك، لا تخيّب ظنّي بك؟

ما إن أكملت العبارة حتى رجع بطرس ليجدني واقفة عند رأسه على غير عادتي، عندها ابتسمت بلطف أنثوي وقلت:

ـهل تمانع يا زوجي إن تعلمت لعبة الشطرنج؟

اتسعت حدقتا عينيه وحسب عبارتي هذه تلميحاً له ورغبة منّي في الاقتراح الذي أخبرني به قبل أيّام –غرفة مشتركة- فأوّل مرّة منذ زفافنا أقول له زوجي.

استأذن من صديقه وأمسكني من مرفقي برفق، استدرت ببطء ونظرت إلى ريمون أترجاه بعيني أن يفكّر بما قلت له، وحالما اختفينا عن أنظار صديقه قال لي:

ـوفاء، تعلمين كم أحبّك؟

ـأنت لا تحبني، أنت تحبها هي؟

ـمن تقصدين ياوفاء؟

ـالتي تشبهني وأحببت أن أكون بديلاً عنها.

رجع إلى الخلف بعدما كان قريبا منّي حدّ الالتصاق، لم يتكلّم، بكلمة واحدة، رجع إلى جلسته مع صديقه، لكن السيد ريمون أصرّ عليه أن يستدعيني لأشاهدهما وهما يلعبان، وعلى غفلة من بطرس دسّ ريمون ورقة في يدي وهمس لي :

ـ منذ عشر سنوات.

أسرعت إلى غرفتي لأجد عنوانا، إذن يقصد منذ عشر سنوات، لكن كيف سأصل إلى العنوان وبطرس يمنعني من الخروج خوفاً عليّ من وباء كورونا، أخفيت الورقة بين ملابسي المعلّقة ودسستها في جيب لباس التعزية الذي لا ألبسه مطلقاً.

عندما جلسنا إلى مائدة العشاء كان متجهم الوجه شاحباً وكأنّ كلامي أثّر به كثيراً، تقدّمت منه وجلست إلى جنبه ثمّ اتكأت على كتفه محاولاً التخفيف عنه وجعله يشعر بأنني الأنثى التي تحبه وقريبة منه، واتكأت برأسي إلى كتفه وأنا أغمض عيني أهمس لذاتي المحطمة من الحياة الخائفة من القادم.

ـ لقد انتشلني من غربتي وتشردي وجعلني أميرة متوجة في قصره، يملك خيارات كثيرة قادر على سلوكها معي، فالسيدة روجينا باعتني له بثمن لا أعرفه ولكنها باعتني وهذا هو المهم، ومع ذلك أرى نفسي مازلت تلك المشرّدة اليتيمة، كان باستطاعته اغتصابي عشرات المرات من أول ليلة ولجت بها باب قصره، أو حتى تعذيبي أو تشريدي من جديد، في قصره الباذخ العامر بالخدّام من النساء ورالجال، جميعهم ينادونني بسيدتي، حتى عندما طلبت منهم مناداتي باسمي رفض هو ذلك هل أرادني أن أكون فعلاً سيدة قصره؟ أخبرتني أمّي فيما مضى بأنّ من

أخلاقنا أن نقابل الإحسان بالإحسان وأن نقابل الإساءة بالإحسان، لأنّ الإحسان يعبّر عنا وعن أصلنا وطينتنا، وها هو يحسن إليّ عاماً كاملاً من دون أن ينال شيئاً هذا ما وقع في نفسي حينها، وأكسبه المزيد من الاحترام والشعور بالحميمة نحوه لأول مرة.

عندما شعرت بنفسي بأنني أسهبت في الشرود والذكريات شعرت به، يحيط خصري بذراعه، فضمّني إليه وقبّل رأسي، أشعرني بمشاعر جديدة تسللت إلى قلبي، وهو يطعمني بيده كحبيبته التي رسمها في خياله وربما أكثر، لم يكن حدثاً عابراً بل كان عشاءً رومانسياً فاخراً بكل ماتعنيه الكلمة، الإحساس باتجاهه بمشاعر نبيلة جميلة يكبر في نفسي، لا يمكن أن أبرر لذاتي تلك الأحاسيس وأن أرفعها إلى مكانة الحبّ الذي يتكلمون عنه، لكنني بدأت أتقبله وأستلطفه، فهو الشخص الأقرب لي وهذا لايمكن نكرانه.

عندما أعود لذاوتي أبحث عن وفاء الصومالية الفقيرة، اجد قلب أمي الخافق الذي يخشى عليَّ من نسمة عابرة أخاطبها أعاتبها أبثها لواعجي:

_ أتعلمين يا أمّي كأن الزمن يداوينا من ذواتنا المجروحة؟ لقد وجدت قلباً عامراً بالحب والحنان يحتويني من دون مقابل في بلد كل شيء فيها بمقابل، ربما هو يريد أن يُغيّر نظرتي لبلده، وربما ينتظر منّي أعظم مما أعطاه لي؟ لكن هو ينتظر مني الحبّ الذي أضاعه في فترة ما من حياته، قررت يا أمّي أن أبحث عن حبيبته وأردّها إليه، ربما أردّ له جميل صنيعه معي، أريد أن أكون بمنتهى الوفاء معي لا أعرف لماذا أريد فعل ذلك لكنه الشعور الذي يلح على ذاكرتي الآن.

هذا ما كتبته في مذكرتي في تلك الليلة، لأذهب بعدها في إغفاءة بديعة حتى الصباح الذي أشرق بجماله وجاءت فكتوريا تحمل فستاناً في غاية الروعة وهي تقول لي باسمة: _يطلب منك السيد أن ترتديه في الحال.

يا إلهي! وضعت يديّ على فمي من شدة الفرح وفرط السعادة وغطيت فاهي المفتوح، لقد أعدّه خصيصاً لي، فيه خمار جميل وهو فستان بأكمام، ما أجمله، لونه ورديّ تتخلله في الوسط وردة زرقاء زادته أناقة وخماراً بنفس لون الفستان تتوسطه الوردة بنفس اللون، من الساتان، يشبه فستان عروس.

كان ينتظرني جانب الدرج كالفرسان العاشقين وبشوق المحبين، وأنا أخطو نحوه بهدوء وكبرياء الأميرات، مد لي يده فأمسك بيدي وقبّلني كالأمراء، حدق في أعماق عينيّ :

_هل أعجبتك هديتي يا سيدتي الجميلة ؟ وانحنى لي، فوضعت يدي اليمنى على فمي وبكيت من شدّة الفرح، عندها حضنني وهمس في أذني:

_أنت الأميرة الوحيدة التي تسكن في قلبي يا حلوتي وليس أحد سواك.

سرت بجانبه يقودني كمعشوقته الوحيدة رغم أنّه كان يتجاهل حبه القديم ويحاول نسيان تجربته لكنني سأسعى لإسعاده ولن أنسى أنّه يرى فيّ حبيبته الغائبة، وربما أكثر من ذلك.

خرجنا معاً في سيارة المرسيدس خاصته وذهبنا لمطعم أعدّ لنا خصيصاً الطعام الذي طلبه، لأنّ بطرس حريص على أن لا يصيبنا الوباء، طلبت منه أن يأخذني إلى شارع سان رينو، إلى حانة تشيلو، لكنه استغرب من طلبي فأنا لا أدخل الحانات ولا أشرب الخمر، ألححت عليه، فأخذني هناك بعدما استبدل ليموزين بسيارته، ذهبنا معاً ودخلنا معاً لنجد عجوزاً تشبهني بالكاد تستطيع تنظيف الأرضية سألتها بهمس دون أن يسمعني عن ابنتها ماري، سبحان الله لم أكن أعلم أنّها والدتها لكنني توقعت ذلك وكان توقعي في محله، حينها أخبرته أنّها والدة حبيبته وأنّ الوباء أصابها وهي تمكث في المستشفى وفي حالة حرجة، عندها لم يستطع أن يخفي حبه ولا تلهفه عليها، فقد استيقظت

ذكرياته الجميلة من سباتها الطويل، أخذني ووالدتها إلى المستشفى، دخل يجري وسط الرواق كالمجنون، متلهفاً ليرى معشوقته الخالدة، منعه الأطباء من الدخول رغم محاولته المتكررة، رآها عبر الزجاج وقد شاخت وأصبحت في مثل سنه وبدت بعض التجاعيد على وجهها، أخبرته أمّها أنها لم تتزوّج أبداً ولم تحبّ أحداً غيره أبداً، زاد تألّمه وأنينه ورفض أن يرجع إلى قصره، فطلب من السائق كي يعيدني للبيت وأصرّ على ذلك خوفاً عليّ من العدوى وانتقالها لي.

بعدما كنت أنوي إسعاده ولمّ شمله مع حبيبته السابقة، ها أنا ذا أقلّب أوجاعه وأضعه على حافة جرف، لا هو قادر على النجاة ولا هو قادر على البقاء، متشبث بحلم ولّى وانطفأ، متعثّر ببقايا ذاكرته الملتهبة، مخلص لحبّ لم يكتمل، لطالما أحسست بحزنه كلّما نظرت في عينه، لطالما أحسست أنّ إحسانه لي ليس مصادفة، إنّه يسقي

حبّه التائه بإكرامي، يحافظ عليه، كي يعيش في داخله ولا يفنى.

كانت فرصة أن أطلب من للسائق أن يأخذني إلى الملجأ قبل أن أعود إلى القصر، وهناك عند المدخل نزلت بهدور الأميرات من سيارة بطرس الفاخرة، فدخلت في أبّهة وأنا أنتعل الكعب العالي، بلونه الأزرق، وأحمل حقيبة يد أنيقة، غالية الثمن، عبرت ذلك الرواق المرصّع بالأزهار الجميلة وأنا أسترجع ذكريات تواجدي هناك وأبحث بعينيّ عن صالح البستاني الذي لايمكن أن أنساه ماحييت، لكن لا وجود له في الحديقة، طرقت الباب، فاستقبلتني الخادمة جولي، لم أتعرّف عليها في البداية ولا هي تعرّفت عليّ، لوضعنا الكمامة الوقائية، لكنّها انحنت مرحبة بي وفتحت الباب وأشارت لي بيدها مرحبة حين بسطتها، نظرت في المكان بتمعن ثمّ قلت لها:

ـألم تتعرّفي عليّ ياجولي؟

شخت ببصرها نحوي، ثمّ حاولت تذكّري من نبرة صوتي، ثم ابتسمت حتى بدت نواجذها وقالت بلهفة:

_وفاء ؟! هذا أنت!؟

"_نعم أنا يا جولي، ثمّ نظرت حولي وأضفت:

_أين السيدة روجينا؟

خفضت رأسها وقالت بأسى:

_ إنها في الحجر الصحي، لقد أصابها الوباء، منذ أسبوع.

_ يا إلهي!

اتسعت عيناي واصلت:

_ هل هي في حالة جيّدة الآن؟

_هي معزولة عن الجميع في غرفتها، لا أحد يقترب منها، خاصة بعد ما حدث

ماذا حدث؟

نظرت حولها وعيناها تتفحصان المكان يميناً ويساراً كمن يخفي شيئاً ما، ثم قالت :

_سأحضّر لك الشاي ونجلس للحديث معاً يا حبيبتي.

ياه.. إنها أوّل مرّة تقول لي حبيبتي! استوقفتها بمناداتي:

_جولي، أين صالح؟ لم أره في الحديقة؟

تجمّدت في مكانها، واستدارت ببطء، بلعت ريقها بصعوبة، ردّت بصوت مرتجف خفيض: _سأحضّر الشاي وأعود، انتظري لحظة.

بدت لي مدّة انتظارها طويلة خاصة مع الهدوء والصمت الذي خيّم على الملجأ كأنّه مهجور، فكرت في صالح كم أشتاق له وأودّ رؤيته، سيفرح إن رآني بهذا الزيّ، سأبدو أطول منه لأنّه مربوع القد وبانتعالي لهذا الكعب سأبدو أطول منه وسيشعر بالدهشة والفرح لي، فهو طيب القلب ولايحمل سوى الخير للآخرين.

وأخيراً لمحتها تتقدّم نحوي، تحمل صينية صغيرة بها كوب شاي وقطع كعك مدهونة بالشوكولا، إنّه كعكي المفضّل، لطالما سرقت جولي منه لأجلي، وحين وضعت الصينية سألتها مرّة أخرى لكن سؤالاً آخر:

ـأين البنات والأطفال؟

ردّت بتحسّر:

ـ لو تعلمين يا وفاء، لقد هرب بعضهم ومرض بعضهم، ولم يبقى سوى أنا والسيدة روجينا وعشرة أطفال بينهم ثلاث رضع فقط.

عدت لسؤالي الأوّل الذ تناسته أوربما خُيل لي ذلك:

ـأين البستاني صالح؟

وضعت كوب الشاي من يدها المرتجفة وقالت بصوت حزين يعاين أثر الفاجعة:

ـ لقد توفي صالح، فقد أصابه الوباء وهو يعاني من مرض الربو مسبقاً كما تعلمين، لقد قضى عليه بعد أقل من شهر من المقاومة.

لم أشعر بيداي، ولا أدري كيف انسكب الكوب الساخن على يدي، صرخت جولي لكنّي لم أسمعها في تلك اللحظة، جاءت مريانا مسرعة طلبت منها جولي أن تحضر ثلجا لتضعه على يدي، سمعت ضحكاته الساخرة بدل أصواتهم، رأيت أطفالا يجرون نحوي، وجولي تحاول إيقاظي، فجأة استفقت لألاحظ مريانا تضع كيسا فيه ثلج فوق يديي وثلة من الأطفال يحيطون بي ويتمعنون ملامحي، سقطت دمعات دافئة على وجنتي، نهضت مباشرة نحو الباب سقط كيس الثلج، واصلت طريقي متجاهلة كلّ ما حولي، تحت تأثير الصدمة.

ركبت السيارة وعدت إلى القصر.

هكذا هو القدر فجأة يجعلنا نفقد من نحبهم في منتصف الطريق وها أنا ذا أفقد صالح الطيب، لطالما وعدت نفسي

بزيارته، وإخباره بما حدث معي، لطالما شعرت بالأمان بمجرّد التفكير في وجوده على هذه الأرض الغريبة عنّي، ها هو يموت غريباً ووحيداً على أرض لم يحبها يوماً، وها أنا ذا أشعر بغربتي تزداد أكثر فأكثر.

مضى يومان لم أرى فيهما بطرس إلى أن جاء وطرق عليّ باب غرفتي، دخل وبرفقته فكتوريا وهي تحمل الطعام، فقال بحزم:

ـأخبرتني فكتوريا أنّك لم تتناول طعامك منذ يومين، كأنك معتزلة عن كلّ شيء؟ آخر ما فعلته هو احتضانها وإخبارها أنّ صالح توفي، والذي أعلم جيّدا أنّه بالنسبة لك أخ عزيز، تقاسمت معه أحلى الذكريات....

انهالت الدموع على وجنتي، حينها طلب من فكتوريا وضع الطعام والانصراف، جلس على حافة السرير، أطرق ببصره إلى الأرض حزيناً:

_لقد فقدت حبيبتي التي لطالما تمنيت لقاءها، لطالما تساءلت عن ملامحها بعد أربعين سنة، قالت لي كلمة واحدة :

_أحبك، وفارقت الحياة.

أتدرين يا وفاء ما الخيبة؟ الخيبة هي أن يضيع حبك في ثانية، الخيبة أن يضيع حلمك في لحظة، وأعظم خيبة هي الفراق، الفراق كأرض موحشة مقفرة منسية، يُسجن فيها الإنسان ولا يدري إلى متى.

همّ بالنهوض لكنني أمسكت يده واختبأت في حضنه، أبكي وأصرخ، خائفة مرعوبة، وهو يُهدّئ من روعي ويُطمئنني كأب كأم كحبيب، لا أدري، وهويهمس لي:

_ هوني عليك صغيرتي.

_ما أبشع ما مررتُ به! لقد أخبرتني أمّي بأنّ الله يبتلينا على قدر تحمّلنا، والله لا يُكلّف نفساً إلّا وُسعها، أتُراني أقدر على تحمّل كلّ هذه المصائب، هل قدرتي بلغت هذا

الحد!، رغم تعبي لا زلت أردد أنّ الله معي، به تزداد قدرتي على التحمل قدرة تخرج فجأة من كمونها لايدركها الإنسان إلا عندما يتغلب على الصعاب.

الفصل الرابع

أصبح بطرس وفكتوريا بالنسبة كلّ ما أملك في هذا الوجود، أو بالأحرى القلبين اللذين أحبّاني دون مقابل وأحيا بهما، وبقي قلب غائب عنّي لا أدري إذا تُوفي أو لا يزال على قيد الحياة؛ إنّه قلب والدي، يا تُرى أين يمكن أن يكون، هل أمسكوا به ليتني أحظى به؟

أسئلة تراودني دائما ....

رغم أنّ هذه البلد بلد العواصف والبرد، فنحن نحسّ بالبرد ونرى الثلج أكثر من إحساسنا بالدفء ورؤيتنا للشمس، وتمتعنا بالطقس المعتدل والهواء المنعش الدافئ، إلّا أنّه أحسن من بلادي في نظافته وتطوّره وحتى في العدالة والمساواة فيما بينهم، يكرهون ويبغضون الغريب، لكنهم عادلون فيما بينهم. أما بالنسبة لي فقد اصطفى الله لي قلوبا أحبّتني، إنّ الله يحبّني، هذا ما

خلصت إليه، ها أنا ذا يا الله أرفع يديّ نحوك ياإلهي أتضرع إليك وأسألك أن أجد أبي، اللهم إن كان أبي على قيد الحياة لاقني به، اجعلني أعثر عليه.

مشغولة بدعائي وتبتلي، لم ألاحظ قدوم بطرس وأنا على سجادتي أناجي الله، حتى شعرت بيده تمسح دمعتي، نظر إلي مبتسماً بعدما انحنى نحوي وجلس بمحاذاتي قائلاً بحنوٍ آسرٍ: ـما يبكيك يا وفاء؟ هل ستة من الشهور التي مضت منذ سماعنا الفاجعة، ألم تكن كافية لتُنسيك بعض آلامك؟!

نظرتُ فيه مع ابتسامة خفيفة:

ـالأشخاص والأحبة الذين فارقونا لن ننساهم أبداً، إنّهم يسكنون في أعماق قلوبنا، لكن هذه المرّة أنا أشتاق لأبي كثيراً، لا أدري ما هو مصيره، هل هو على قيد الحياة؟ أم توفي، هل أمسكوا به؟ هل هاجر من هذا البلد؟

ـذكّريني باسمه يا حلوتي؟

_ حسناً عزيزي، اسمه الكامل: محمود عبد الرحمن.

_سأحاول قدر استطاعتي الوصول إليه، سأعلمك بكل أصل إليه.

غادرني بطرس وأنا كلي امتنان لماقاله وأعلم أنه لايقول إلا خيراً فيما يخصني وما وعدني به لأجل والدي، أشعر بشعور جميل يتسلل إلى قلبي وأنا أتأمل قطرات الغيث المنزلقة على نافذتي، أنظر إليه وألمسها من خلف الزجاج، الهو بها كالأطفال، بطرس يواصل البحث عن والدي وأنا قررت بكامل قناعتي أن أكون زوجة له، لقد صبر كثيراً، كان كريماً ورؤوفا معي، سأحاول أن أكون زوجة صالحة، اليوم أتممتُ اثني عشرة سنة، شأن أبي عندما خرج بنا شأن الكثيرين فيمن خرج من أرضنا على أمل أن نعيش أفضل، أن ننتقل إلى حال أحسن، لكننا للأسف فجأة ضاعت أمانينا الكبيرة وتلاشت أحلامنا، حين لمست أقدامنا هذه الأرض، فقدت معها أمّي التي لايزال صدى صوتها يتردد في رأسي حين طلبت مني أن

أسرع في الهرب، كي أعيش فقد وهبتني الحياة، فأدركت معنى حب الأم فقد أصبحت حاملاً بمولودي الأول، وها أنا ذا اليوم أشارف على الولادة وحيدة دون أمّي، دون دعواتي أمّي، ولا حتى فرحتها لتقول لي :

_ها أنا ذا يا وفاء سأصير جدّة.

_ يا أمّي هربنا إلى عالم أكثر أماناً يحترم الإنسانية، ظنّا منّا أنّنا نحقق إنجازاً ونصنع مجدنا المفقود وها نحن ذا متشتتون، أنا أمّ في هذ العالم الكبير، أمّ قاصر، لا زلت يا أمّي أحضن الدمى عند نومي لأنني مازلت أشعر بأنني صغيرة، وأخاف من الخزانة المفتوحة المظلمة، وأنتظر الحلوى كلّ عيد، لم يفهم أو يرحم أحد طفولتي، لا قوانينهم ولا مبادئهم، يا أمّي ابنتك خائفة جداً، حديثك يا أمّي يرنّ في مسامعي، وها أنا ذا أدوّن كلماتي ولا أدري إن كنت سأحضن مذكّرتي بعد المخاض أم سألاقيك عند رب العالمين ؟ أدعو لي ياأمي كي أشعر أنك قريبة مني، تهتمين لأمري.

أغلقت مذكّرتي وأنا أعاني من آلام المخاض التي راحت تعصرني وتعصر حياتي معها، وإذ بماء ينفجر منّي كالسيل، ناديت بصوت متعب:

_فكتوريا أنا ألد؟

جرت نحوي هي وبطرس، وأنا أصرخ:

_يا الله، أعني فأنا أعلم أنّك معي، يارب، يارب.

أدخلوني بسرعة إلى غرفة الولادة، همسوا فيما بينهم وسمعتهم يقولون:

_جسدها هزيل، لا يحتمل العملية، هي صغيرة، لا تحتمل.

ثلاثة أطباء، ومعهم طبيبة حاولت بكل ثقة أن تُهدّئ من روعي، أن تبعث الطمأنينة لقلبي، أمسكت بيدي، لتبث في نفسي القوة وتشحنني بالعزيمة، ساعدتني على التنفس بشكل منتظم، حاولوا توليدي بشكل طبيعيّ واستعملوا آخر خيار وهو الولادة القيصرية، فقد أخبرتني

الطبيبة الجميلة وهي تمسك بيدي أنّه أفضل حلّ لي ولطفلي، قلت لها بلغتي :

ـ إن الله معي ولن يخذلني أبداً، إنّ الله كان دائماً معي.

لم تفهم من كلامي شيئا سوى كلمة الله، فكررتها لي بابتسامة وأومأت برأسها، مرّ الوقت بسرعة هائلة وهي إلى جنبي تراقب نبضات قلبي وتمسك بيدي حتى سمعت صرخات رضيع، جاء به الطبيب ووضعه فوق صدري، قبلت جبينه الصغيرة وقلت لهم:

- اسمه عبد الرحمن على اسم جدّي.

ها أنت ذا يا صغيري تُزيّن حياتي وأنا أشارف على بلوغ ثلاثة عشرعاماً. فرح بطرس بوجوده أيّما فرح، لم يعترض على تسميتي له، بل لم يُصدّق أنّه سيصبح أباً بعد كلّ هذا العمر.

الفصل الخامس

بينما كنت ألعب مع عبد الرحمن إذ بامرأة طويلة القامة، نحيفة الجسد، ذات عينين واسعتين زرقاوين ورقبة طويلة، شقراء، تدخل بهدوء من باب القصر وأعطت معطفها للخادمة، فتقدّمت نحوي مرتدية تنورة قصيرة، ضيّقة، تُفصّل جسدها تفصيلا، وقبل أن تجلس على الأريكة مدّت يديها نحو ولدي عبد الرحمن لتحمله وزيّنت وجهها بابتسامة ماكرة فيها كل معاني الخبث، أعطيتها الرضيع ظنّا منّي أنّها قريبة بطرس، قبّلت جبين الصغير، ثمّ لوّحت بيدها وإذ برجلين يرتديان بدلات رسمية أنيقة، يتمتعان بجسدين قويّين، أمسكا بمرفقي، أحدهما أمسك بمرفقي اليمين والآخر أمسك بمرفقي الشمال، نظرت إلى فكتوريا التي كانت تراقب كلّ هذا من باب المطبخ، تضع يدها على فمها ذهولاً وارتعاشاً، نظرت إلى تلك المرأة

التي رغم جمالها إلّا أنّها بدت في عقدها الرابع، قلت لها بغضب:

ـمن أنت؟ كيف تجرؤين على هذا التصرف ؟ ألا تعلمين بأنّني زوجة السيد بطرس؟

ضحكت بسخرية وقالت:

ـأعلم، لكن يُؤسفني أن أخبرك أنّك لست كذلك، أنا زوجته الحقيقية.

شخصت ببصري نحوها فلم أفهم ماتعنيه، لم أعد أشعربقدميّ، فشلت رجلاي، قلت لها :

ـأنا التي هي زوجته.

ـ هه، فعلاً معتوهة أنت، كيف تكونين زوجة وأنت قاصر، لم تبلغي بعد ثلاثة عشر عاماً؟

نظرتُ إلى الرضيع، فأيقنت من نظراتها وتصرفاتها بأنّها تريد أخذه منّي، مددت يداي رغم أنّ الرجلين لا يزالان يُمسكان بي فقلت لها بقوة: عبد الرحمن، أعطني ولدي.

في هذه الأثناء دخل بطرس بخطى بطيئة كأنّه كان يعلم بوجودها، أشعل سيجارته ببطء، حين رأيته أوجستُ منه خيفة لكنّني فرحت لأنّه يُحبّني، قلت والدموع تملأ عيناي:

_بطرس، هذه المرأة تدّعي أنّها زوجتك، وترفض إعطائي ولدنا عبد الرحمن؟

نظر إليها، وتقدّم منها ببطء ووقف بجانبها، وهي لا تزال جالسة، تُمسك بالرضيع وتلاعبه كأنّها أمّه، رفعت بصرها نحوي وقالت بكل ثقة وهدوء:

_كنت مجرّد وعاء، حملت بابننا، نحن لم نقدر على الإنجاب، ففكّرنا بامرأة تحمل بولدنا، لكن يجب أن تتوفّر فيها شروط، وقد توفّرت فيك كلّ الشروط هذه كل الحكاية.

ذُهلت ممّا سمعت، قلت والدموع تختلط بصوتي وبروحي:

ـ غير معقول هذا؟ سأشكوك في الحال، أنت تسرقين ولدي من لحمي ودمي.

ضحكت بهستيرية بصوت عال:

ـألا تعرفين من أكون، أنا ابنة قاضي المحكمة العليا، كلّ ذلك العزّ الذي كنت تعيشينه هو ملكي، وهذا القصر ملكي، وأيضاً الشركة التي يُديرها بطرس، ألا تعلمين أنّ زوجك خسر كلّ ماله في القمار يا عزيزتي، ألم تُخبرها بالحقيقة يا بطرس؟

نظرت نحوه، ثمّ وقفت، وهو لا يزال إلى جانبها، واصلت:

ـستخرجين من هذا القصر كما جئت إليه، لقد تركتُك شهرين بعد الولادة، وذلك كاف بالنسبة لي.

قال لها بطرس:

ـإنّ الطقس بارد جداً يا عزيزتي ولقد حلّ الظلام، دعيها تنام الليلة هنا وفي الصباح تذهب.

قلت له بصوت حزين مفجوع:

_إنّ فؤادي يحترق يا سيّدتي لا تأخذي طفلي منّي، لا تفجعيني في صغيري، أرجوك.

قالت بحزم وغضب:

_لم يعد صغيرك بعد اليوم، ولدك مات وهذا ولدي الآن.

طلبت منهم إخراجي، فعلا صراخي وبكائي وتخبّطي بين أيديهم، فكتوريا تبكي بصمت، لم تستطع فعل شيء، بطرس واقف كصنم وأنا كزوبعة غير مؤذية، أخرجوني خارج القصر وخارج البناء، ووقفت أطرق على الباب الرئيسيّ وأبكي وأصرخ:

_أعيدوا لي ولدي عبد الرحمن، لا تسرقوا منّي حلمي، لا تسرقوا ولدي، فهو ثمرة فؤادي.

بكيت وصرخت حتى ذهب صوتي وانتفخت عيناي ولا أحد أجابني، فهدئتُ من شدّة التعب، البرد راح يخترق

جسدي كوخزات إبر، قدماي تُؤلمانني من شدّة البرد، أين سأذهب في هذا الوقت يا ربّ؟ كيف سأفعل من دون ولدي؟

أخبرني أبي أنّ كلّ شيء بمقابل، كلّ ذلك الصبر والانتظار لم يكن مجّانيا بل كان مقابل ولد وهبته الحياة لي في لحظة جنون، مقابل وعاء يحمل ولداً، مقابل حياة، أخذوا حياتي منّي، أخذوا روحي، آه آلام تتفاقم في نهداي من الاحتقان، إنه وقت رضاعته المعتادة، ربما هو يبكي الآن يبحث عن حضني، يريد أن يرضع، يا رب أكرمني بالصبر وأكرمه بالحنان.

على قدر الحب يأتي الابتلاء، أنت تحبني يا رب، قدّرني على التحمّل، كيف سأطيق العيش من دون عبد الرحمن، كم انتظرت طويلاً كي أصبح أماً أن أكون أمّاً كباقي النساء.

وأنا على هذه الحال وإذ بفكتوريا تأتي من الباب الخلفيّ الصغير، أحضرت لي بطانية وعشاء، ومالاً، قالت بخوف وتوجس:

_لا تخافي يا وفاء، أنا معك.

لففت جسدي في تلك البطانية وأنا خائرة القوى، خفضنا صوتينا لكيلا يسمعنا أحد:

_لماذا لم تُخبريني عن زوجته من قبل؟

_لأنّني لا أعرفها، وعندما بدأت العمل هنا أوصاني السيد بطرس ألاّ أتحدّث بأيّ شيء أراه أو أسمعه وإلّا قتل أمّي المقعدة وأخي الصغير، فكنت أنفذ كل أوامره كالخرساء والطرشاء بآن واحد.

بكت بحرقة وذرفت دموعها السخية لأول مرة أمامي منذ أن عرفتها فرق قلبي لحالها، أمسكتُ بيدها أربت عليها، فحضنتها كأخت لي لم أرها منذ زمن بعيد، وهي بدورها شعرت بمدى تعاطفي معها، فأطعمتني بيدها

كالأخت الكبرى، اعتذرت منّي وودّعتني سريعاً، وبقيت وحيدة في ظلمة الليل أشكو بثي وحزني إلى ربي، هذا مآلي من الشارع وإلى الشارع، لم تُراعي حالتي الصحية ولا ظلمة الليل ولا هذا البرد، إنّ الله يُداول هذه الأيّام بين الناس، بدأتُ أفكرّ وأتذكّر أواصل محادثة نفسي:

_لهذا السبب لم يهتم لشكلي الشديد الأفريقي، كنتُ مجرد وعاء مؤقت، ما أغباني، كيف لم أنتبه، هل مسحت ذاكرتي المآسي؟ نعم أنا بلهاء وإلا لما وقعت ضحية كذبة الحب المصطنعة، كيف أسترد ذاتي وأنا في مثل هذه الحالة البائسة ؟ أعني يارب.

عاد المطر للهطول ثانية، أين سأذهب يا ترى في هذا البرد القارس، ناديت بأعلى صوتي رافعة رأسي للسماء:

_ياارب. كفكفتُ دموعي، لا يمكنني أن أكون ضعيفة، إن ضعفت سأُدمّر نفسي، يجب أن أقاوم، فصوت صغيري عبد الرحمن يناديني.

نهضت من مكاني متثاقلة الخطى، أبحث عن مكان يأويني، استوقفت سيّارة، وقفت أمام أوّل بيت فُتح بابه في وجهي، إنّه الملجأ، وصلتُ إليه، كيف وصلت لا أدري؟ ربما هي القدرية التي تتلطف بنا من دون أن نشعر، يا تُرى هل سيفتحون الباب لي في هذا الوقت المتأخّر من الليل؟

طرقت بيدي المتعبة على الباب الرئيسيّ لكن لا مجيب، ولاحتى صوت يوحي بوجود أحد ما، نظرت في ذلك الفناء الصغير لعلّي أجد مكانا أحتمي فيه من البرد والغيث، تقدّمت فيه ببطء، وجدت كرسيّ الحديقة الرخامي، توسّدتُ خيبتي وضممت رجلاي ولففتُ جسدي بالبطانية متكورة على نفسي، ونمتُ تحت الكرسي وشعور الوخزفي نهدي يُؤلمانني ويسيل منهما الحليب، غفوتُ على خيبتي التي أرهقت روحي هذه المرّة إلى درجة كبيرة.

في غفوة الألم وتوهان الروح المتعبة من الحياة، وصدى صراخ ولدي عبد الرحمن، جاءني طيفها فتقدّمت

منّي، وهي ترتدي عباءة بلون أبيض، شعرها مسدول على كتفيها، في وجهها نور وروحانية عجيبة، لمست وجهي بيدها الحنونة وابتسمت بحنوو قالت لي: _لا تيأسي يا وفاء، إنّ الله معك ولن يتخلى عنك.

اعتدلتُ في جلستي بعدما كنت نائمة من شدة الإعياء والتعب وقلت:

_لقد تعبتُ يا أمّي، أخذوا منّي عبد الرحمن.

ما زالت تبتسم بهدوء كالملائكة:

_ لاتقلقي ياوفاء سيُعيده الله إلى حضنك، كفكفي دموعك، ستكونين سعيدة بعودته.

ثمّ انطفأ طيفها وتلاشى، ناديت :

_ أمّي.. أمي؟

ليس هناك سوى صدى رؤى وأمنيات.

وإذ بي أستيقظ على صوت جولي:

_ وفاء، وفاء، ما بك، كيف وصلت إلى هنا؟

رفعت رأسي إليها بيأس محموم فأثقل الحزن رأسي.

أمسكت بيدي وقادتني لتدخلني للملجأ، بعد أن استعدت شيئاً من ترياق الحياة، سردت لها ما حلّ بي، استبدلت ملابسي المبللة بملابس من عندها، واتجهت مرّة أخرى إلى القصر، لأجلس أمام المدخل الرئيسي تحت شجرة مغروسة كحارس أبدي هناك، أجلس يوماً كاملاً حتى تغيب الشمس، قلبي كان يتمزّق شوقاً لصغيري عبد الرحمن، سيارات تخرج وتلج ولا مجيب، حتى العمّال الذين كانوا يخدمونني كأميرة ويتحدثون معي باحترام شديد، لم يكترثوا لوجودي، صاموا عن الحديث معي، لا يُحادثني أي أحد منهم، حتى فكتوريا بقيت على تلك الحال سبعة عشر يوماً، فأعود مهزومة الوجدان إلى الملجأ محطّمة الفؤاد، أتجرّع كؤوس المرارة و الخيبة المتكررة.

الفصل السادس

جاءت السيدة روجينا على غير عادتها جلست إليّ، سألتني عن حالي وعبّرت عن ترحيبها بي، ثمّ أعطتني رسالة، أخبرتني أنّ صالح حين أدرك أنّه سيفارق الحياة كتبها وطلب منهم أن يرسلوها لي، فتحتها على عجل وبلهفة:

ـبسم الله، عليه توكلت، إليك يا وفاء أكتب آخر كلماتي، لم أتوقع نهاية مثل هذه، ولا أن أموت بهذه الطريقة، خلصتُ يا وفاء إلى أنّنا لن نتوقع نهاياتنا ولا حياتنا، نحن نسير في طريق مجهول، أنا سعيد من أجلك، سمعت أنّ الرجل الذي تبنّاك قدّم للسيدة روجينا مبلغاً ضخماً، أنصحك يا وفاء تهربي، وترجعي لبلدك، قبّلي تراب أرضك، موتي في بلدك، بين أبناء وطنك، لن يُصلّوا عليّ يا وفاء، لن يتذكّرني أحد، لن يبكي عليّ أيّ

شخص، لن يدعوا الله أن يُثبتني عند السؤال، أنا خائف يا وفاء، خائف، تصدّقي على روحي، لا تنسيني يا وفاء هذه وصيتي الأخيرة لاتنسيها أبداً.

كانت دموعي تتهاطل على وجنتي وأنا أبكي مع كل حرف وعبارة كتبها صالح، كتب من مداد قلبه وروحه، بللتُ الرسالة بدموعي، ثمّ شهقتُ بكاءً كمن كان يختزن بركاناً من الألم، إذ لم أكن أتوقع أن أشعر بهذه المشاعر التي كانت دفينة نحو صالح الطيب القلب، حضنتني جولي، وهي تهون عليّ، سألتها:

ـأين دُفن؟

ـ سأخذك إليه.

أخذتني إلى المقبرة التي بُنيت قبورها بعيدة كلّ البعد عن مقابرنا، أخذت جولي باقة ورود معها وضعتها عند الشاهد، أمّا أنا فقرأتُ سورة الفاتحة ودعوت الله له، تحدّثتُ إليه حديث المحبين الأطهار قلوبهم:

_قرأتُ رسالتك بعد عامين من وفاتك، وها أنا ذا يا صالح أقف أمام قبرك وأدعو لك، اللهم ارحم صالح واغفر له وآنس وحشته، اللهم اجعل مأواه الجنّة، سأتصدّق على روحك الطاهرة يا أخي، أفتقدك يا صالح، أفتقد أمّي، أفتقد طفولتي... قاطعتني جولي:

_ما زلت طفلة ياوفاء.

شعرت بأن قلبي قد ارتوى من البكاء، مسحتُ دموعي وعدت آفلة، أما جولي فقد توجهت إلى السوق، وأنا توجهت إلى قصر السيد بطرس لعلهم يُشفقون على حالي، صرختُ باسم ابني، ثمّ لمحتُ بطرس ينظر إليّ خلسة من نافذته، وإذ بفكتوريا تأتي مهرولة نحوي، قالت لي بهمس:

_السيد بطرس يقول لك اذهبي لهذا العنوان، سيُوافيك هو مساء" ودسّت ورقة في يدي وعادت مهرولة، لم أفتح الورقة حتى ابتعدت عن القصر.

كنت أفكر طوال تلك اللحظات ماذا عساي أن أفعل هل أصدق بطرس بعد الذي حصل؟ لم يكن أمامي سوى الذهاب إلى ذلك العنوان، وصلت إلى ذلك الذي بدا فارغاً، صعدتُ إلى الطابق الثاني، تفاجأت بوجود السيد ريمون الذي كان في استقبالي، رحّب بي، وفجأة ظهر من خلفه بطرس، بحثت بعينيّ، ظننته سيُحضر لي ابني، سألته بعينين حائرتين:

ـأين ابني؟

أطرق ببصره إلى الأرض ثم قال:

ـلم أظنّ أنني سأحبّك يوماً إلى هذا الحد، رغم صغر سنّك إلّا أنني أحسستُ نفسي رجلاً أمامك، أعدت لي الحياة، بعدما كنت أشعر بأنني فقدت رونقها، ندمتُ على ما فرطت به، أتعلمين هي كانت السبب في خسارة مال عائلتي، لن تشعري بي أبداً، لن تعذريني، أعلم ذلك، لقد كان زواج مصلحة، لم أحبّها يوماً، خاصة مع

شخصيتها المتسلّطة، لم يرزقنا الله بأطفال، وقدحمدتُ الله على ذلك بعد أن اكتشفت طبيعتها المتوحشة.

استغربتُ حديثه، أشرتُ له بيدي أن يتوقف عن الحديث، نظرتُ إلى ريمون ثمّ إليه، قلت وفي داخلي بعض السخرية مما يقول:

_الله وحمدت الله! حديثك غريب جداً يابطرس!

قال ريمون:

_لقد دخل في دين الإسلام منذ أسبوعين.

نظرتُ إلى بطرس، اتسعت عيناي، ابتسمتُ رغم حزني:

_ الحمد لله، يعني يوم أخرجتني زوجتك؟

_ نعم، لم أنم في تلك الليلة اتجهت فوراً إلى أقرب مسجد، في الحقيقة لم يكن قريباً كان وسط المدينة، طرقت الباب ليلاً، فتح لي رجل يُشعّ نوراً، لحيته كثيفة ووجهه بشوش، أخبرته قصتنا، بشّرني وطمأنني، أخبرته

أنني أريد أن أسلم وأن أعرف الإسلام عن كثب، منذ ذلك اليوم وهو يُعلّموني أصول الدين واللغة العربية لأنّها لغة القرآن"

_الحمد لله، أنا سعيدة لأجلك يابطرس بحق.

طلب منّي أن أجلس وأرتاح قليلا، لا أدري ما حصل لي لكن أُغمي عليّ، حين استفقت وجدت طبيباً يجلس بمحاذاة السرير وبطرس يجلس إلى جنبي، أخبره الطبيب بأنني أحتاج إلى الراحة والنوم، فأنا لم أذق طعم النوم منذ أخذهم ابني إلّا ساعات قليلة غفوت فيها رغماً عنّي، قبّل بطرس رأسي وغفوت مرّة أخرى، لم أستفق حتى اليوم التالي، فتحت عينيّ لأجد تلك الأدوية فوق المنضدة، نهضت على مهل وخرجت من الغرفة، لم أجد أحداً.

جلستُ في الصالون أنتظر وإذ ببطرس يفتح الباب ويدخل، حالما رآني قال لي مبتسماً: _عزمت على العودة قبل استفاقتك.

نظرتُ إليه بحزن:

_أشتاق لرؤية ابني عبد الرحمن أريد أن أعانقه وأرضّعه.

جثوت على ركبتي، أمسكتُ يديه مترجية، رفعتُ رأسي ودموعي تنهمر على وجنتيّ: _أرجوك يا بطرس، أعد ابني إلى حضني، سيكون معروفاً لن أنساه لك ماحييت.

أجابني ولأول مرة أشعر بصدق كلماته رغم ما أشعر به من خيبة مريرة من ناحيته.

_الأمر ليس بهذه البساطة يا وفاء، يمكن لوالدها أن يسجننا ويدبر لنا مكيدة تودي بنا إلى الاعدام، معارفه كثر، له يد في كلّ قطاع، له علاقات مع الوزراء، أمّا هي فأكبر امرأة أعمال في المدينة، أنا في حيرة من أمري، لا أعلم ماذا يجب عليّ أن أفعل؟

رأيتُ دموعا في عينيه، أوّل مرّة أشاهد فيها بطرس وهو يبكي بصمت، أيحسّ بوجعي، نظرتُ حولي وسألته:

ـأين ريمون؟

وقف محاولا إخفاء دموعه، لكنّي رأيت الحسرة على وجهه، لا يمكنه أن يخدعني ويوهمني أنّه قويّ وصلب وقاس، قال بهدوء:

ـسيأتي قريباً، ما أطلبه منك الآن، أن تذهبي للملجأ، وتخبريهم أنّك في أمان وألا يبحثوا عنك ثمّ عودي إلى هنا واحرصي على ألّا يعرف المكان أيّ شخص، حاولي سلوك طريق مختلف في كل مرة، لكيلا يُكشف أمرنا.

تساءلتُ:

ـأمر ماذا؟

ـستعرفين كلّ شيء في وقته المناسب.

أعطاني ما كان يحمله من أكياس، أحضر لي فستاناً أنيقاً وخماراً، ذا لون بنفسجيّ، ارتديتهما وخرجتُ عازمة أن

أفعل ما طلبه منّي، لم يعد يهمّني شيء سوى عبد الرحمن ابني، هذا ما تبقى لي من هذه الدنيا.

ليتني أستطيع الاستيقاظ من هذا الكابوس، ليته كان كابوساً، تقدّمت من ذاك الملجأ وإحساسي يُخبرني بأنّها آخر مرّة ألج إليه، يجب أن أكون شجاعة وصبورة، هذا ابتلاء وعلى قدر طاقتي يبتليني الله، إذن أنا أطيق هذه المصائب وسأتجاوزها.

الفصل السابع

في القاعة في الملجأ كنا مجتمعين وهي قاعة الانتظار المعتادة، أخبرتهم بأنّني لن أعود إلى الملجأ، فلقد وجدت عملاً عند عائلة غنية، ودّعتهم جميعاً وعدت إلى تلك الشقّة، أنتظر المجهول ويقيني بأن الله دائماً معي ولن يتخلى .

طوال المسير في الشوارع كنت أتمعن في وجوه الناس الذين يمرون من حولي في شوارع المدينة الهادئة، قلوب تائهة، قلوب قاسية، أدهشتني قساوة تلك المرأة، قلبها المتحجّر، أشفقت على بطرس وكلّ تلك السنوات التي قضاها برفقتها، بشخصيتها المتسلّطة، هل يمكن لمصالح الإنسان الماديّة أن تجعله عبداً، يحرم نفسه من حريّة أعطاها له ربّ العالمين، كيف لشخص أن يقبل بهذا الذلّ والجبن" جادلتُ نفسي:

_لا تستغربي كثيراً يا وفاء، يمكن للطمع أن يفعل أكثر من هذا، لقد غرّه منصبها ومنصب والدها، نسي أنّ فوق العباد ربّ العباد.

واصلتُ حديثي الداخليّ وانتبهت لأمر هامّ أسعدني فعلاً:

_الحمد لله يا رب أن جعلتني أحد أسباب إسلام بطرس، لكنني لم أسأله عن اسمه في الإسلام، هو متحرّج منّي وممّا فعله بي، لكنني سامحته، لأنّه أحبّني بصدق وهو مغلوب على أمره، هذا مارسخ في قناعتي رغم معاناتي.

طرقت الباب وفتح لي ريمون، أشار بيده إلى بطرس، وقف مسرعاً، قال بحزن وتحسّر: _سامحيني يا وفاء، لم أكن أتوقع أن أحبّك كثيراً، أن يلين قلبي حين أرى دموعك، ناقشتها في الرجوع عن قرارها لكنها من شدّة رغبتها بالأمومة تحجّر قلبها وهي على استعداد لفعل أي شيء لأجل مصلحتها.

نظرتُ إليه وقلت:

_لقد صفحت عنك يابطرس، أعلم أنّني، حين أصفح عنك فأنا أعطيك فرصة جديدة لتغيّر رأيي بك، حين أصفح عنك فأنا أقول لك أنّني أحبّك ولا أسعى لقطع علاقتي بك، حين أصفح عنك فأنا أعفو عنك عند قدرتي على ردّ الصفعة صفعتين، حين أصفح عنك فأنا أتغاضى عن أخطائك مهما بلغت لأنّني أعلم أنّ لديّ أخطاء أيضاً، حين أصفح عنك فأنا أفضّل قربك مني وأخاف البعد عنك، الصفح هو محاولة أخيرة لاستعادة حياتنا من جديد.

نظر بطرس إلى ريمون مستغرباً من كلامي، فنظرتُ إليه بثقة:

_لا تستغرب كلامي، علّمتني الحياة النضوج، كبرت بعقود، تجاوز عقلي عمري الحقيقي.

سألني بطرس:

ـمن أين لك بكلّ هذا اليقين ياوفاء، وكلّ هذا الإيمان، من أين تستمدين كل قوّتك؟

ـاليقين هو أن تسلم أمرك لله، أن تثق أن عناية الله ولطفه يحميانك ويجعلانك إن كنت خاسراً، تخسر أقل ما يمكن، أو بالأحرى يجعلان كلّ ما يصيبك فيه خير، حتى ولو بدا لك أنّ فيه شرّ، اليقين هو أن تدعو الله وكلك إيمان مطلق أنه سيستجيب لك، اليقين أن تكون تقياً نقياً، اليقين هو الثقة الكاملة فيما اختاره الله لك مهما بدا لك غير مناسب، اليقين هو تسليم أمرك لخالقك، أن تؤمن بمفارقة الحياة في أيّ لحظة وهذا يخفف من تمسكك بالحياة.

ـأنت نقيّة جداً يا وفاء، لقد تعلّمت منك دروساً عظيمة في الأخلاق والحكمة رغم فارق العمر الذي بيننا، لكنني أجد نفسي أمامك مثل تلميذ يبدأ حياته الأولى.

ـ لست بذلك النقاء ولا بتلك البراءة التي تراها كي تجعلني قديسة، أنا لست صالحة إلى درجة تجعلني من الأولياء الصالحين، أنا فتاة أو امرأة بما أنني أصبحتُ أمّا،

تخطئ وتصيب، تتعثر فتنهض، تغير وتحقد، تندم وتستغفر، أنا امرأة تكون شريرة في بعض المواقف فتتصيّد الأخطاء وتترصّد بالمشاكل، أنا امرأة تكون طيبة أحياناً فتجعل من الشوك وردة بلمستها البريئة، تنقل عدوى الحب والرحمة كعطر ثمين، أنا بشر مخلوقة من ضلع آدم، أنا أنثى، أنا شريكته في حياته، أنا تلك الممحاة لقلمي الذي يخطئ، تمنّيتُ أن أكمل حياتي معك، لم أتوقّع أن تكون النهاية هكذا، نهاية حياتنا، ابني بعيد عنّي وأنا محروقة الفؤاد، رجوعه إليّ في هذه الظروف معجزة بالنسبة إليّ.

ـما هي المعجزة يا وفاء؟

جلست لأستذكر كلام أبي حين كان يضعني على ركبته ويُخبرني عن حقيقة المعجزة، قلت له بعدما صمتُ قليلاً :

"

هل تعلم يابطرس أن المعجزات قد تأتيك بهيئات مختلفة، قد تراها في دعائك تحقق لك كل ما حُرمت منه

بعد طول انتظار، وقد تحقق بعد أن نسيته، وفجأة ترى معجزة ما طلبته منذ زمن يتحقق، المعجزة هي رزقك الذي جاءك دون طلب، هي صحتك، استيقاظك من فراشك، المعجزة هي أملُك في تحقيق الأفضل، المعجزة هي أن تقرّ عينيك فرحة حين يختارك الله لأمر معيّن، حين تشعر بذلك الفضل، حين تشعر بعظمة الله، بأنّه يراقبك، يحميك، يحرسك، ويختار لك ما يكون الأفضل لك دائماً.

تنهّدتُ وصمت قليلاً، ولا يزال يُنصت إلى حديثي هو وريمون، ما زلت أتذكّر قصصاً أخبرتني بها أمّي في زمن ما، قلتُ:

_كانت وحيدة لكنها صادقة، تمثل لها ملك الوحي بشراً، خافت تراجعت، استعاذت بالله منه، لكنه بشّرها بغلام دون مسبب، استعجبت واندهشت بل استغربت، لكنّ الملك أخبرها أنّ الله إذا أراد أمراً فإنّما يقول له كن فيكون، فثقي أنّ الله لو أراد أن يرزقك ذلك الشاب الوسيم

الغني زوجاً لحصلت عليه في لمح البصر، ولو أراد أن يرزقك تلك السيارة الفخمة وكل ما تشتهيه نفسك لحصل ذلك في لحظة سريعة، فقط ثقي في الله، فبعد هذا الموقف دخل زكريا عليها ليراها تأكل فاكهة في غير موسمها! تساءل من أين لك هذا! قالت هو من عند الله، هناك تذكّر وتمعّن فهو لم يدع الله قبل هذا الموقف أن يرزقه ولد، فالله على كل شيء قدير، هرول مسرعاً فدعا الله بيقين فاستجاب له، أمّا هي فقرّت عينها، تخيّل يا بطرس فتاة في مقتبل العمر تُنبّأ أنّها حامل بنبيّ، ماذا ستفعل؟! كيف ستواجه قومها؟ وماذا ستقول؟ اختيار صعب وموقف أصعب، سهّله اليقين، سهّله الإيمان، اعتزلت وسلّمت أمرها لله ثمّ ماذا؟ نفّذت أمر الله، وفي الأخير قرّت عينها، كم من مرّة أُرغمت على اتخاذ قرار ليس في صالحك ثمّ استندت في حكمك على الأشياء إلى القرآن والسنّة، حكّمت شرع الله قبل تحكيم عقلك، أو قلبك، كم مرّة ناقشت أفكارك؟ هل تصورت موقف مريم

عليها السلام ؟ تأخذنا مشاكلنا إلى تفكير عقيم ونهايات مأساوية، تخذلنا الحياة في كثير من المرّات وترتسم علامات الحزن على وجوهنا، لكن تُهوّنها ثقتنا بالله الكريم.

عندما أنهيتُ حديثي وقد كان متأثراً به إلى درجة كبيرة، أخرج من جيبه جوازا سفر، قال: _هذا جواز سفرك وهذا جواز سفر عبد الرحمن، غداً في الساعة الحادية عشرة ليلاً حجزتُ لكما في رحلة جويّة، سأعيدك إلى بلدك برفقة ابنك.

انحدرت دموعي على خدّي، أمسكتُ الجوازين، حضنتهما وقبّلتها لم يهمّني كيف حصل عليهما، المهم عندي الآن أن يعود إليّ ولدي، أن أحضنه مجدداً، أن أسمع بكاءه وصراخه، وأناغيه، كيف سأنام هذه الليلة، كيف سأفعل، كم سأنتظر؟

بقيتُ أعدّ الساعات والدقائق والثواني، الوقت يمرّ ببطء شديد، وأنا أجيء وأروح في تلك الشقّة، أفرك يديّ

ببعضهما تارة وأشبّك أصابع يديّ تارة أخرى، زاد شوقي واحتراقي، كلما اقترب اللقاء زاد الشوق، دخل ريمون مسرعاً:

_هيّا يا وفاء، سيُلاقينا شريف وبطرس في المطار.

أسرعت حملت الحقيبة التي فيها بعض الثياب لي ولعبد الرحمن، وانطلقنا في سيّارته وقلبي يدقّ بسرعة فائقة، وأنا أبتهل :يا رب.

لم يبق على انطلاق رحلتي سوى عشر دقائق، أين بطرس يا رب، أبحثُ بعينيّ عنه، وإذ به يُهرول نحوي من بعيد يحمل عبد الرحمن بين يديه، أسرعنا نحو البوابة، عبرنا، الحمد لله، لا يزال يحمله بين يديه وقلبي يرتجف، أريد أن أحمله، لكن دهشتي واستغرابي منعاني من حمله، إنّ بطرس ذاهب معنا، حافظتُ على صمتي حتى صعدنا الطائرة، وهو لا يزال يحمل عبد الرحمن بين يديه، اعتدلنا في جلوسنا وربطنا الأحزمة، قلت حينها:

ـبطرس أعطني عبد الرحمن.

قبّله على جبينه، وأعطاني ابني، قبلت كلّ جزء من جسده، لم أصدّق نفسي، لقد صدقت الرؤيا، تذكّرتُ ما أخبرتني به أمّي في منامي أنّه سيرجع إليّ، طلبت منّي أن أكفّ عن البكاء، وها أنا ذا أبكي بكاء فرح، تمعّنت ولدي طوال الرحلة، لم أنم من شدّة الفرح.

بعدما ارتاح بطرس وقاربنا على الهبوط، سألتُ بطرس:

كيف استطعت إحضار عبد الرحمن؟

ـخططتُ أنا وريمون وفكتوريا، وضعت فكتوريا لها منوّما في عشاءها، أوهمتها بأنّني مسافر شرق فنزويلا لأقوم بصفقة عمل، كتبت لها رسالة ووضعتها فكتوريا في غرفة عبد الرحمن وأحضرته لي خلسة.

ـما هو فحوى الرسالة؟

_كتبتُ لها لقد أخذتُ ابني معي يا متحجّرة القلب، ومعها أوراق طلاقي منها، لقد كلّفتُ المحامي بإنهاء جميع إجراءات الطلاق.

نظرتُ إليه مبتسمة والطائرة تهتزّ بنا، تُنظر بالوصول:

_لقد اخترت حياة جديدة إذاً؟

_ نعم لقد تعلّمت منك العزم والإصرار، سأبدأ من جديد رغم كهولتي.

شدّ على يدي وقال:

_اسمي الجديد في الإسلام هو محمد.

نزلنا من الطائرة نحضن أحلامنا، ونعانق آمالنا، قلت لطفلي:

_ ها هي بلدنا يا عبد الرحمن، عدنا إليها ثانية ولن نهرب منها مرّة أخرى، سنسعى لازدهارها، ولن نغادرها بعد الآن.

تقدّم رجل أسود منّا مبتسماً مرحّبا:

_ أهلا بكم في الصومال.

نظر إلى محمد:

_أين تريد أن أقلّكم يا سيّدي؟

نظرنا إلى بعضنا وضحكنا، نحن لم نحدد مسارنا بعد، ثمّ سكتنا فجأة، قال محمد:

_نعتذر منك، خذنا إلى أقرب فندق إذا أمكن.

بدأنا نخطط لحياتنا الجديدة في العاصمة *مقديشو*، ونؤسس لبيت وعمل من جديد، وأخذتنا الحياة في متاهاتها، لألتقي بعد سنوات بمتسول لم يكن سوى أبي، يتسوّل على رصيف وسط المدينة، عرفته، حين رآني لم يُصدق عينيه، لكنّه عرفني، اعتذر منّي وطلب الصفح، أخذته إلى بيتي، تحمّم وارتدى ثياباً نظيفة وجديدة اقتنيتها له، ناديت على عبد الرحمن، ابتسم أبي:

_لقد سمّيته على اسم جدّي يا أبي.

حضنه وقبّله، واصلت:

_عمره الآن ست سنوات يا أبي.

نظر حوله، قلّب بصره في البيت، وحمد الله على لقائي به.

فتحتُ مذكّراتي مجدداً لأكتب النهاية:

زوجي محمد يُزاول عمله كمهندس في شركة مرموقة، ويشتغل في التصميم الفوتوغرافي فهي هوايته المفضلة، يزاول حفظ القرآن، ويُداوم على الصلوات، وأبي يعيش معي يا أمّي، أمّا أنا فإنني حامل بابنتي الثانية وسأسمّيها أمل يا أمّي، سأحرص على تربيتها وتعليمها، سأجعل منها فتاة قويّة لا يكسرها شيء، لا تكسرها المصاعب ولا تُخيفها العثرات، ها أنا يا أمّي أعود إلى بلدي الذي خرجت منه هاربة، أعود إلى حضني الدافئ، أعود إلى أرضي وأرض أجدادي، الصومال .